مكتبة عبد الله
أحمد جليل

تطور الدرس النحوي

د. عبد الله إسماعيل

معهد البحوث والدراسات العربية

تطور الدرس النحوي

الدكتور حسن عون

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حينما شرعنا فى معالجة هذه القضية — تطور الدرس النحوى — مع طلاب معهد البحوث والدراسات العربية لجامعة الدول العربية كان يتمثل فى الذهن فكرتان واضحتان يستأثران بقدر كبير من التأمل ، ويوجهان جانباً غير قليل من المجهود العقلى :

تنطوى الفكرة الأولى على أن نتخذ من هذا البحث ميداناً للدراسة التركيبية ، بمعنى أن نشرف على الموضوع ، وننظر إلى عمومياته من أعلى ، ونرقب سيره مع الزمن ، ونسجل أخص سماته وأبرز ملامحه حتى ترتسم صورته الكلية أمام السامع أو القارىء وتختفى منه الأجزاء والتفاصيل لتكون موضوعاً للدراسة التحليلية التى ظفرت بكثير من عناية علمائنا فى اللغة والنحو والصرف . فالدراسة التركيبية تتوقف على الالمام الكامل بالمادة وترمى إلى إثراء الثقافة العامة لدى الدارسين ، وذلك عكس ماهو متبع ومنتظر من الدراسة التحليلية التى تهتم بالتفصيل والتفتيت والتعمق والغوص.

وقد أصبح كلا النوعين من الدرس مطلوباً لذاته ؛ ولا غنى لأحدهما عن الآخر . وتنطوى الفكرة الثانية عن تتبع ظاهرة التطور فى الدرس النحوى لدى العرب منذ نشأة هذا الدرس حتى الوقت الحاضر آخذين فى الاعتبار أمرين هامين :

الأول: أن كلمة — تطور — لاتعنى بالضرورة التغير إلى ماهو أحسن ؛ فقد يكون العكس ؛ وقد يكون مجرد التغير ، دون نظر إلى تقييم أو مقارنة .

الثانى : أن هذا التطور لم يكن مديناً لبيئة أو لمدرسه كما ألفنا أن ندرس نحونا على أنه نتاج مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد ، ولكنه فى الواقع مدين لجهود بعض علماء النحو وثمرة من ثمرات نشاطهم العقلى ، ومن أجل ذلك سندرس ملامح هذا التطور فى مدارس منسوبة إلى أصحابها من أئمة النحاة بدل أن تنسب إلى مدن عرفت بنشاطها فى الدرس النحوى ؛ فقد أصبح ذلك منذ القرن الثالث الهجرى لايصور الواقع ولا يعبر عن الحقيقة. كان هذا مسلك لغويى الأغريق واللاتينيين قديماً وكذلك الشأن بالنسبة لفلاسفتهم .

كانت هناك أكاديمية فلان أو فلان من الفلاسفة ، ومدرسة فلان أو فلان من اللغويين أو الرياضيين، ولم تكن هذه المدارس أو تلك الأكاديميات منسوبة إلى أثينا أو كريت أو ساموس .

صحيح أن مثل هذا وجد فيما بعد وعرف الناس مدرسة — ميجارا — Mégara (١) ومدرسة - Cyrene (٢) - سيرين ، ومدرسة الاسكندرية ولكن هذا حدث فى عصور متأخرة نوعاً ما وعرفت بأنها مدارس من الدرجة الثانية ، وذلك لانعدام الأئمة الأفذاذ واختفاء الشخصيات الخطيرة التى كانت تصور قمة المجد العالمى وتستحوذ على روافد الثقافة والمعرفة .

خططنا لذلك الدرس وفقاً لهذه الاعتبارات ، وكنا نتصور أن ننتهى من مسائله وقضاياه بانتهاء الموسم الدراسى ، ولكننا أمام رغبة الطلاب فى المناقشة وفى التعرض لبعض الجزئيات المتصلة بالقضايا الكلية والاستطراد

---

(١) ميجارا : وتنطق باليونانية — ميغارا — مدينة بالقرب من بوغاز كورانث فى منطقة البيلوبونيز نسبت إليها هذه المدرسة .

(٢) مدينة فى شرق ليبيا : كانت مستعمرة يونانية حتى استولت عليها روما سنة ٩٦ قبل الميلاد ، أنشأ اليونانيون فيها مدرسة نسبت إليها .

المفيد والمرغوب فيه ، نقول ، أمام ذلك كله وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نقف دون النهاية التى خططنا لها .

كان المنهج فى وضعه الأول يتناول ـ اجمالا ـ تطور الدرس النحوى فى فى مدرسة سيبويه ثم فى مدرسة الزمخشرى ، ثم فى مدرسة ابن مالك ، ثم فى العصر الحديث أو فى القرن الرابع عشر الهجرى ، ولكنه فى مرحلة التنفيذ لم يمتد إلا إلى مدرسة ابن مالك .

وآثرنا أن نرجىء معالجة تطور الدرس النحوى فى العصر الحديث إلى فرصة أخرى رغم ماتؤمن به من أن هذه الظاهرة ـ ظاهرة تطور الدرس النحوى ـ خلال القرن الرابع عشر الهجرى أهم وأخطر مما كانت عليه فى القرون السابقة ، يضاف إلى ذلك أنها شغلت حيزاً كبيراً من تفكير النحاة واللغويين فى هذا العصر ، واستنفذت طاقات عظيمة للتوفيق بين الدرس النحوى ومتطلبات العصر من التيسير مع غزارة المواد العلمية وسعة المعارف.

وفقنا الله وألهمنا الرشد فى القول والصواب فى العمل ؟

حسن عون

الباب الأول

الدرس النحوى قبل سيبويه

ليس لدينا من الأدلة النظرية ولا الوثائق المادية ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أن الدرس النحوى ، فضلا عن أية دراسة لغوية أخرى ، كان له وجود عند العرب قبل زمن البعثة ، وذلك رغم وجود المبررات العديدة ، والحوافز المختلفة الداعية إلى هذا اللون من الدراسة ؛ لعل أبرزها وأكثرها إلحاحاً وجود الأجانب من الفرس والأحباش والروم واليهود فى المجتمع العربى وفى منطقة الحجاز بصفة خاصة ؛ وكان هؤلاء جميعاً وربما غيرهم من شعوب أخرى — يمارسون أعمالا متعددة ، أهمها النشاطات التجارية على النطاق الخارجى والداخلى معاً ، والمهن المختلفة التى كان العرب فى حاجة إليها ، ولكنهم لا يرضون أن يمارسوها بأنفسهم لتفاهتها فى نظرهم ولأنفتهم من العمل فيها ؛ من ذلك مهنة انتاج وسائل الزراعة ووسائل الصيد ووسائل الدفاع عن النفس ؛ وكان لليهود نصيب كبير فى هذا الميدان ، كما كان لهم نصيب كبير أيضاً فى نشر التعامل بالربا واستغلال ظروف المجتمع العربى المادية فى ذلك الوقت .

وكان هنالك قطاع كبير من هؤلاء الأجانب يقوم بمهام ثانوية وبأعمال الخدمة فى البيوتات العربية أطلق عليهم اسم العضاريط . ولم يكن هؤلاء وأولئك يجيدون العربية ، ومن المعتقد أنهم فيما بينهم كانوا يتحدثون بلغاتهم الخاصة ؛ وترتب على ذلك وجود لكنات متعددة وأنواع كثيرة من اللحن وكلمات وتراكيب لا تمت للعربية بصلة . وقد أفاضت كتب السير والرواية والتاريخ فى الإبانة عن ذلك ، وليس يعنينا هنا سوى الإشارة السريعة للظروف المحيطة باللغة العربية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فإن ماهو معروف من التفكك الاجتماعى ، وانعدام الوحدة السياسية فى نظام دولى بين العرب فى ذلك الوقت لم يحفز العرب أو يحمسهم على تحاشى هذه العيوب المنطقية والتفكير فى خلق نوع من الدراسة اللغوية تحفظ لسانهم وتصون لغتهم وتنظم قواعد النطق الصحيح لهؤلاء الأجانب الذين كان عددهم يتزايد باستمرار .

والعجيب أن نفس هذه الظروف فى أثينا وفى روما كانت الحافز الأكبر لانشاء الدراسات اللغوية فى المجتمعين اليونانى واللاتينى .

والسؤال المهم هنا هو : لماذا لم تؤثر نفس الظروف الاجتماعية لدى العرب فى خلق دراسة لغوية على أية صورة من الصور ؟

سبب ذلك — فيما نعتقد — هو أن واقع حياة العرب وطبيعة أنظمتهم الاجتماعية قبل الاسلام لم يتركا لهم فرصة التفكير فى هذا ، إذ أنهم لم يكونوا يتوقعون شراً على لغتهم ولاخطراً على مستقبلها ، إما لأنهم يكتفون بضمان سلامتها على ألسنتهم هم ؛ وإما لأنهم لم يكونوا يقيمون وزناً لهؤلاء الأجانب ولا لما يصدر عن ألسنتهم من لكنات وأخطاء . بل ربما كانت هذه وتلك — بدل أن تزعجهم — تثير فى أنفسهم لوناً من الطرافة والتفكه مقتنعين بأن عدوى ذلك لن تصل إلى ألسنتهم ولن تؤثر فى سلامة لغتهم .

وهذا هو ماحدث فعلا ؛ فقد أسلموا لغتهم نقية صافية إلى جيل البعثة النبوية .

نصل إذن إلى عصر البعثة دون أن يظهر فى اللغة العربية ملامح دراسة نحوية .

يجىء عصر البعثة النبوية فيجىء معه اهتمام غير معهود باللغة وسلامتها ، وإدراك عميق بنقائها وصفائها وبلاغتها . وإحساس قوى بالخطر عليها إذا ما تركت دون رعاية من أهلها ، وحرص شديد على مستقبلها البعيد كلغة دين وإدارة وعلم وسياسية .

لقد هزت البعثة الإسلامية المجتمع العربى هزاً عنيفاً كما تهز رياح الخريف أغصان الشجر فتسقط أوراقه الذابلة لكى ينمو فى مكانها براعم جديدة قوية تستطيع الصمود أمام العواصف الهوجاء .

لقد شملت الهزة الكيان العربى كله . وأبرز ما يتضح فيه ذلك ، اتجاهان :

الأول — طرح السلبية والأخذ بسبيل الإيجابية .

الثانى — الإحساس باللغة كعنصر قومى فعال وأداة من أهم الأدوات للاقناع والتغلب وتبليغ الدعوة والعمل على تثبيتها ونشرها .

بالنسبة للاتجاه الأول أصبح العرب فى مواجهتهم للحرب يلتزمون بكلا الطريقين المعروفين قديماً : المبادرة بمهاجمة الأعداء قبل أن يهاجموهم ، والاعداد للحرب طلباً للسلام . لم يكن يعرف عن العرب قديماً تفكير فى هذا ولا تخطيط له ، فكانوا يفاجؤون بجيوش الأعداء فى قلب جزيرتهم أو على مشارفها ، كما حدث بالنسبة للجيوش الفارسية والحبشية والرومانية . ولكنهم بعد البعثة أخذوا يتمرسون على المواقف الإيجابية بسرعة ، فتراهم يبعثون بالسرايا ويقومون بالغزوات : وأبرز بادرة منهم فى هذا السبيل

ما حدث فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من قيامهم بغـزوة تبوك سنة ٩ هـ ، تلك الغزوة التى أعد لها بشىء من العناية ووجهت إلى الروم بقصد مباغتتهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم وإضعاف الروح المعنوية فى صفوف جيوشهم الذين كانوا يتحفزون ويتحرشون بالعرب طمعاً فى الهجوم عليهم وخنق الدعوة الدينية الجديدة التى أخذ يرتفع شأنها وتلتف الجماهير من حولها وتنذر أصحاب الصولجان والعروش بالشر وسوء المصير . وهذا من غير شك — جديد على العرب لم يألفوه ولم يمارسوه من قبل .

وبالنسبة للاتجاه الثانى برزت بوضوح المكانة الجديدة التى اكتسبتها اللغة العربية فى عصر البعثة ، فقد أصبحت لغـة الوحى والتنزيل ، كما أصبحت كذلك لغة المنطق والإقناع ، ولغة نشر الدعوة وإقامة الشعائر الدينية والتعبير عن الروحانيات والأنظمة والقوانين ، وقد أكسبها ذلك — من غير شك — كثيراً من العناية بها لفظاً ومعنى وأسلوباً ، كما أكسبها كثيراً من الاحترام لأنظمتها نطقاً وكتابة وتفاهما .

دخلت اللغة العربية عصر البعثة فى طور جديد يتميز بالطواعية والشفافية والصفاء والجمال بحيث أصبح لها تأثير السحر على العقول وعمل الفتنة فى القلوب والقدرة على التسلل إلى الأعماق البعيدة فى النفوس ، وقد وعت لنا الكتب وحفظت لنا الروايات آثاراً عديدة من ذلك تشير إلى أهمية اللغـة وتبرز المكانة التى وصلت إليها فى جيل البعثة النبوية .

كان من الطبيعى — والأمور تسير على هذا النحو — أن يصاحب هذا التطور اللغوى شىء من الحرص على سلامتها واليقظة على تنقيتها والعمل على استقامتها والبعد بها — ما أمكن — عن أخطاء الأجانب ولكنات العضاريط ، كما كان من الطبيعى أيضاً أن يزداد هذا الحرص بازدياد الاعتماد عليها فى تبليغ الدعوة الدينية ونشرها .

غير أن ذلك الشعور وهذا الواقع اللغوي لم يظفرا — في زحمة مسئوليات الدعوة وما تستلزمه من مشاغل ذهنية وزمنية — بالفرص المواتية لكي يقوم أولو الأمر بخطوة إيجابية في هذا السبيل ؛ ولكنهم مع ذلك استطاعوا وليس هذا بالشيء القليل — أن يشرحوا رغبتهم في هذا الأمر ويوضحوا وجهة نظرهم نحوه مكتفين بالإشارة العابرة والكلمة السائرة والملاحظة السريعة ليظهروا فحش اللحن في القول وأهمية الحرص على سلامة اللغة والعناية بنطقها وفقاً لأنظمتها وقواعدها . فأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان ينزعج لسماع واحد من الناس يتحدث فيلحن ، وأنه قال في أحد هذه المواقف : ارشدوا أخاكم فقد ضل ؛ وكذلك أثر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أقوال تشبه هذا وتدور حول ذلك المعنى .

ورغم ذلك فمن المستبعد أن تسمح الفترة الزمنية إذ ذاك — بما تستلزمه من مهام الدعوة وتنظيم شئون المجتمع الجديد روحيا وماديا — بالتفكير الجاد والمتابعة اللازمة في الدرس اللغوي والتخطيط له والعمل من أجله .

ينتهي عصر البعثة إذن بهذه النتائج المحددة :

١ — شعور قوي بمكانة اللغة وقدر لا بأس به من الاهتمام بسلامتها .

٢ — ظهور عوامل متعددة تؤثر رعايتها وتدعو للحفاظ عليها .

٣ — وجود بوادر واضحة للحث على مراقبة النطق اللغوي ومحاولة إصلاح ما قد يظهر فيه من فساد .

يجيء عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين بما يحملانه من تغييرات اجتماعية كبيرة فيزداد الاهتمام باللغة والعناية بمستقبلها من حيث هي وعاء التعاليم الدينية عن طريق القرآن والسنة ، ومن حيث هي كذلك وسيلة التفاهم بين أصحاب الدعوة وأفراد الخليط العجيب من الناس الذين دخلوا فى الإسلام أو رغبوا العيش فى كنفه ، والذين أسهموا بدرجة كبيرة فى إبراز ظاهرة اللحن وتفشى الأخطاء اللغوية وانتشار الرطانات الأجنبية. حينئذ لم يستطع أولو الأمر من العرب أن يغمضوا العين عن لحن المقرفين ، وأخطاء الهجناء ولكنات العضاريط فأولوا اللغة عنايتهم ونبهوا إليها من يستطيع من العرب المثقفين أن يكتشفوا عللها ويضعوا أسس علاجها بتخطيط واضح ومنهج مدروس . ومن الإنصاف أن نقرر أن هذا الاهتمام بأمر اللغة من جانب أولى الأمر فى القرن الأول من الهجرة ظل بعيداً عن متناول الفكر عند من يتصدون للتعريف بالحضارة العربية وبمن ساهم فى بنائها منذ أن بدأت تستقر الأمور فى الدولة الإسلامية ، ولقد كان هذا سببا فى طمس بعض الحقائق المتصلة بتاريخ معارفنا وحضارتنا ؛ كما كان سببا فى عدم تقييم ذلك الاهتمام بعد كشف أغواره وأبعاده من ناحية ، وغبن أولئك الذين تنبهوا له ، وغذوه، وعملوا على انجاحه، من ناحية أخرى؛ ولو أن مثل هذا حدث فى شعب آخر أو فى حضارة أخرى لرأينا موقفا يختلف تماما عن موقفنا حيال حضارتنا وحيال من أمدوها بآرائهم المبدعة وأفكارهم الخلاقة .

إن أبطال هذا الاهتمام كثيرون ، ولعل من يتصدرهم ثلاثة : على ابن أبى طالب ، عبد الملك ابن مروان ، والحجاج بن يوسف الثقفى ؛ كما

أن علماء العرب ، الذين تصدوا لوضع منهج الدرس اللغوى وأشرفوا على تنفيذه ، كثيرون كذلك ؛ ولعل من يتصدرهم اثنان : أبو الأسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم .

إن الخطوة التى قام بها أبو الأسود من وضع ضوابط للشكل الاعرابى تتمثل فى تنقيط أواخر الكلمات بالمداد الأحمر تمييزا لما هو مرفوع عما هو منصوب أو مجرور وتلك التى قام بها — فيما بعد — نصر بن عاصم من وضع نقط الإعجام على الحروف بالمداد الأسود تمييزا للباء عن مثيلاتها فى الرسم ، أو للجيم عن الحاء والخاء ؛ نقول ، إن هاتين الخطوتين من جانب هذين العالمين الجليلين يعتبران تخطيطا بارعا للدراسة اللغوية قراءة ونطقا ؛ كما يعتبران منهجا سليما للاصلاح والدرس اللغوى فى وقت لم تعرف فيه مناهج علمية ، ولم يوضع فيه تخطيط لأى نوع من أنواع الدراسات المختلفة .

من هنا — وكما أشرنا منذ قليل — تبرز القيمة العلمية والفنية لهاتين الخطوتين المبتكرتين فى الدرس اللغوى ، كما يبرز تقصيرنا فى تقييم هذا العمل والاعتراف لأصحابه بالعلم والفضل والكفاءة . وهذه ظاهرة — رغم أنها ليست مقصودة — متفشية عند كثير من مثقفينا الذين اتصلوا بثقافات الغرب واطلعوا على مناهج البحث الحديثة وما فيها من منطق ومالها من فوائد فأغرموا بها وفتنوا بممارستها دون أن يفكروا فى درس أسلافنا وفى تقييم أعمالهم .

ولقد أحدث ذلك فجوة بين معارفنا الحديثة وثقافتنا القديمة ؛ ولعل أخطر ما فى ذلك هو قطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا الثقافى ؛ إذ ان من غير المعقول، وربما من البله ، أن ننسلخ من تراث أسلافنا ونحاول بكل طاقاتنا

أن نعتمد على الغرب فنقتبس منه أسس معارفه الحديثة فى المنهج والنظريات والتطبيق .

لسنا بذلك ندعوا إلى مقاطعة الحضارة الغربية وما وصلت إليه من سعة المعرفة وسلامة المنهج ودقة التطبيق ؛ ولكننا ندعوا إلى أن نأخذ منها ما ينمى معارفنا ويوسع آفاقنا ويفيدنا فى تبين الجوانب الجيدة فى حضارتنا العربية وفى الكشف عن أصالتها . ولتكن لنا أسوة بما صنعه الغربيون أنفسهم حينما أرادوا أن يتجاوزوا ظلام العصور الوسطى فانكبوا على معالم الحضارة العربية يأخذون من معارفها ونظرياتها العلمية ما يسعفهم للنقلة إلى إلى الحضارة الحديثة .

لقد كان مسلكهم فى هذا تغريب المعارف العربية ومحاولة تطبيقها على معطيات تكاد تكون غربية خالصة ، بحيث يصعب على من لم تكن لديه خبرة كافية إذ ذاك أن يميز بين ماهو عربى وما هو غربى . حتى فى أثناء ذلك لم ينسوا مصادرهم الغربية الأصيلة الضاربة فى أعماق التاريخ والمسجلة للمعارف الإغريقية واللاتينية . وبقيت عملية الانصهار بين المعارف العربية والمعارف الغربية مستمرة مع مرور الزمن حتى اختفت آثارها أو كادت تختفى من الوجدان الغربى الحديث .

المهم أنهم مع هذا التطور العلمى المذهل والتقدم الحضارى العظيم مازالوا يرجعون بين الحين والحين إلى التراث الاغريقى واللاتينى ينقبون فيه — كما يصنع علماء الآثار — لعلهم يكتشفون ظاهرة علمية أو أدبية أو فنية لم يكن قد اهتدى إليها الباحثون من قبل فيسلطون عليها الأضواء ويعرفون منها مالم يكن معروفا من قبل ، أو لعلهم يهتدون — نتيجة الامعان والتأمل — إلى تفسير جديد لظاهرة أخرى استقر الرأى على فهمها بصورة وأمكن فهمها من جديد بصورة أخرى .

وهكذا يجد الغربيون باستمرار فى مصادرهم السابقة رصيدا ضخماً من المعارف المختلفة وكنوزا علمية وأدبية لا تنفد مع مر الأيام والسنين .

وليست مصادر المعرفة الاغريقية واللاتينية بأغزر ولا بأعمق من مصادر المعرفة لدى العرب ؛ بل العكس هو الصحيح : فلماذا لا نرجع إلى تراثنا ونبعث فيه الحياة من جديد - فنقوم بتقييمه، ونتزود منه ، ونقضى على هذه القطيعة التى كادت تقيم بيننا وبينه حجابا كثيفا وسدا منيعاً ؟

كانت هـذه المحاولات النظرية والعملية فى الدرس اللغوى بمثابة الأساس الذى قام عليه النشاط العقلى حول النصوص اللغوية : قرآن ، حديث ، أدب .

غير أن ذلك لم يكن فى ذلك الوقت خاضعاً لتخطيط متفق عليه أو متمشياً مع قواعد منهج مدروس ؛ وإنما كانت هناك مسائل تثار وليـدة الصدفة أو نتيجة لإحدى المناسبات كأن تقرأ آية من القرآن بطريقة ثم تقرأ نفس الآية الـكريمة بطريقة أخرى ، وكأن تشكل كلمة فى نص لغوى بطريقة ثم تشكل نفس الـكلمة بطريقة أخرى ، وكأن يتلى بيت من الشعر بطريقة ثم يتلى نفس البيت بطريقة أخرى .

فى هذه الظروف يثور الجدل بين العلماء وتختلف الآراء فينتصر فريق لرأى ويتصدى لتبريره والدفاع عنـه ، كما ينتصر فريق آخر لرأى آخر ويتصدى لتبريره والدفاع عنـــه ، وفى خلال ذلك تبرز المسائل اللغوية والنحوية والصرفية .

ومن الأمثلة التى كان يدور حولها النقاش والجدل قراءة نصر بن عاصم لقوله تعالى : « قل هـــو الله أحد . الله الصمد » بدون تنوين ، وقراءة عروة بالتنوين .

ومنها ما ورد فى كلمة ـ بَيَّاق ـ بدلا من كلمة ـ أبوق ـ[١] .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٢٣

ومنها قراءة ابن أبي اسحاق بنصب - نكذبَ ونكونَ - في قوله تعالى : « يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . وقراءته بالنصب أيضاً في قوله تعالى : « الزانيةَ والزانيَ » ؛ «والسارقَ والسارقةَ » .

وموقفه من الفرزدق حينما نقده في قوله : ...فهما ريم ؛ وفي قوله :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا .

ومن ذلك ما يرويه ابن سلام عن ابن أبي اسحاق حينما سأل يونس عنه : هل سمعت من ابن أبي اسحق شيئاً ؟ قال : نعم ، قلت له : هل يقول أحد « الصويق » ؟ يعني السويق ؟ قال : نعم عمرو بن تميم تقولها(١) . ومن ذلك ما قيل من أن الأصمعي سأل الخليل بن أحمد عن كلمة وردت في رجز : ... لم تكادى ؛ فقال لمَ لم يقل : لم تكدْ بدل لم تكادى ؟ ثم وجه السؤال إلى أبي عمرو بن العلاء فقال جواباً عن ذلك : ولم تكادى أيتها الإبل .

وسمع أبو عمر بن العلاء رجلا ينشد : ومن يَغوَ لا يعدم على الغي لائماً .

فقال : أقومك أم أتركك تتكسع في طُمتك ؟ فقال : بل قومني ؛ فقال ، قل : ومن يغوِ (بكسر الواو) ألا ترى إلى قول الله عز وجل: فغوى .

وهكذا تتنوع القضايا وتختلف وجهات النظر وتتشعب المسائل اللغوية ولكنها مختلطة متشابكة دون أن تكون هناك حدود لمباحث النحو أو الصرف أو اللغة .

أين كانت تدور هذه المناقشات ؟

كانت تثار هذه المسائل ويدور حولها الجدل والنقاش في بعض المجالس الخاصة أو في بيوت بعض العلماء ؛ وكثيراً ما كان يدور ذلك في المربد ، الذي عرف بعكاظ الاسلام ؛ وأهم من ذلك كل ما كان يدور في مسجد

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٦ - ٢٧

البصرة حيث كانت تقام فيه حلقات للدرس اللغوى وأخرى لقراءة القرآن ، والمعروف أن أبا عمرو بن العلاء كان يتخذ من هذا المسجد مكانا يقرىء الناس فيه القرآن . ولعل أهم أيام اللقاء للمدارسة، كانت أيام الجمع .

إن المطلع على أحوال ذلك العصر عقليا واجتماعيا يستطيع أن يفترض ـ وهو مطمئن ـ أن هذه البداية المتواضعة والمضطربة فى الدرس اللغوى قد أخذت تنمو حثيثا فى أبعادها أفقيا ورأسيا ؛ وذلك بين المهتمين بشئون العربية ، وبصفة خاصة فى إطار القرآن الكريم وما يفرضه من فهم للمعنى واستقامة للفظ وحصر لأوجه القراءات المختلفة وتخريج لها ؛ كما يستطيع أن يفترض أيضا أن هذا اللون من النشاط العقلى وذلك النمط من الدرس اللغوى قد أصبح بمثابة ـ موضة العصر ـ فاندفع فى تياره عدد غفير من العلماء والدارسين إما تعبداً وتقربا إلى الله وإما إلماما بشئون الدين وأحكامه عن طريق معرفة النص اللغوى .

اتجه فريق من هؤلاء إلى جمع اللغة فى نصوصها المختلفة ؛ واتجه فريق آخر إلى مناقشة هذه النصوص على ضوء النظام الشكلى أو البيانى ؛ واتجه فريق ثالث إلى إبداء الرأى فى بعض الظواهر النحوية أو شرح الغريب فى النصوص اللغوية أو تقعيد القواعد الخاصة بالنطق وسلامته على ضوء ما يراه وما يتذوقه من الممارسة للتعبير العربى السليم .

هناك قضية لاتزال غامضة فى نظر الباحث اللغوى والمؤرخ للنحو العربى ولمن يكتب عن تطور الدرس النحوى ؛ هذه القضية تتصل بالآثار النحوية التى يمكن أن تكون قد وجدت قبل كتاب سيبويه .

هذه مسألة كثرت فيها الروايات واختلفت الآراء ولم يتضح وجه الحقيقة فيها حتى الآن .

إن كل مانعرفه عن الإنتاج النحوى فى هذه الفترة الزمنية الممتدة من أيام على بن أبى طالب وتلميذه أبى الأسود الدؤلى إلى أيام سيبويه — أى فى فترة تزيد عن مائة سنة — لا يتعدى محاولتين اثنتين : إحداهما: محاولة أبى الأسود لوضع بعض أبواب النحو فى صفحات أو رقاع يتحدث بشأنها صاحب الفهرست فيقرر أنها وجدت ثم فقدت ؛ ولا يكاد يذكر شيئاً عن مضمونها سوى عده للأبواب النحوية التى عولجت فيها ؛ وفى هـــذه المسألة لايتفق الرواة على رأى واحد ؛ فبعضهم يذهب إلى أن أبواب النحو فى صحائف أبى الأسود تتناول الفاعل والتعجب وإن وأخواتها ؛ ويزيد البعض الآخر على ذلك أبواباً أخرى . ولا يمكن الحسم فى ذلك مادمنا لم نعثر على أثر مادى يؤيد هذا الرأى أو ذاك .

والمحاولة الثانية: هى التى قام بها عيسى بن عمر من تأليف كتابين فى النحو : الجامع والإكمال ؛ وكل ماقيل عن هذين الكتابين لايخرج عن مجال التقريظ والإشادة والثناء ؛ أما عن أبوابهما وطريقة معالجتها ، وعن منهجهما ومدى تنفيذه فلم نقف على أثر من ذلك .

وفوق ذلك فلا نجد واحداً من الرواة يقرر فى صراحة أنه رآهما أو رأى من رآهما كما تحدث صاحب الفهرست عن صحائف أبى الأسود الدؤلى.

ليس من السهل أن نتردد فى قبول الروايات القائلة بأن الدرس اللغوى قد أثمر وظهرت فيه مؤلفات قبل عصر سيبويه ، فمن الحق أن نتصور أن هؤلاء الرواة - وهم من العلماء والمثقفين وأصحاب المكانة فى المجتمع - قد اختلقوا هذه الأخبار من عندهم دون أن يكون لديهم سند من الحقيقة . من المحتمل جداً أن يسجل أبو الأسود بعض ملاحظات فى النحو تتصل بقواعد النطق وتنظيم الشكل ؛ وهو الميدان الذى ثبت أنه قام بأول تجربة فيه ؛ ومن المحتمل كذلك أن يكون عيسى بن عمر قد جمع بعض القواعد النحوية فى صحائف أو رقاع على شكل مجموعتين سميت إحداهما الجامع وسميت الأخرى الاكمال ؛ كما أنه من المحتمل أيضاً أن يكون غيرهما من العلماء قد شغل بتدوين عدد من الملاحظات النحوية والقواعد التنظيمية للنطق والتعبير ؛ بل غريب أن يكون غير ذلك بعد أكثر من مائة سنة من تسجيل القرآن ومحاولة ضبطه ، وتشكيله ، وقيام دراسات متنوعة من حوله. وكل ماينبغى أن ننبه إليه هو اليقظة والحيطة فى فهم هذه الروايات وتقييم ماورد فيها من مصطلحات مثل ألف « كتاباً » ، ومثل «وضع أبواباً فى النحو» وما شاكل ذلك ؛ فالمسألة فى تقديرنا لاتعدو أن تكون محاولات أولية قصد منها إيصال مافيها من معارف إلى هؤلاء الذين لم يتيسر لهم حضور ما يجرى من مناقشات وسماع ما قد يكون هناك من أفكار وآراء ؛ أو أن تكون مذكرات شخصية تنظم ما يقال شفوياً فى مجلس عام أو خاص دون ترتيب بين عناصرها ولا رباط بين أجزائها .

وقد يكون القصد منها حرص العالم على مافيها ، ورغبته فى الرجوع إليها وأمنيته أن تكون نواة لعمل علمى أكبر وأهم . وفى ضوء ذلك يجب أن نفرق بين مضمون هذه المصطلحات العلمية فى ذلك الوقت ومضمونها فى العصور التالية ؛ إذ المسألة نسبية بحتة .

ومن يدرس أوليات المعارف فى الحضارة الإغريقية واللاتينية يجد

تشابهاً كبيراً بين المُعْطَيات الأُولَى لدى الغربيين والمعطيات الأولى التى نعثر عليها أو نقرأ الأخبار الواردة بشأنها لدى العرب ؛ فقـــد وجدت هناك محاولات مشابهة فى مختلف الميادين العلمية ، وضاعت أو اختفت من الوجود ولكن أسماءها أو ما قيل عنها ظل فى ذهن الأجيال المتعاقبة كحقائق يستندون إليها فى تاريخهم لهاتين الحضارتين .

صحيح أنه بالنسبة للآثار النحوية عند العرب فى خلال تلك الفترة الممتدة حتى منتصف القرن الثانى للهجرة تقريباً أبديت ملاحظات وجيهـة تدعو إلى التشكيك ، وذكرت تهم قوية تزعزع الثقة فى وجودها ، ولكن ليس من الإنصاف أن نستجيب تماماً إلى هذه السلبية ما دمنا لم نجـد أثراً منها أو نقلا عنها . ولولا ضيق الوقت وتحديد المنهج لذكرنا ما دار بشأن هذه القضية وأوردنا حجج القائلين بنفيها وناقشنا هذه الحجج وأظهرنا مافيها من مغالطة وإسراف وإجحاف ، مع الاعتراف بأنها من القضايا الهامة التى يعتمد عليها التعرف على المرحلة الأولى من تاريخ الحضارة العربية.

ويمكن أن نخلص من دراسة هذه الفترة بالنتائج التالية :

أولا : اهتمام متزايد بقضية اللغـة على ضوء ما تسرب إليهـا من أنواع اللحن التى تجاوزت حدود النطق ولغة التفاهم إلى آيات القرآن نتيجة للظروف الجديدة فى المجتمع الإسلامى .

ثانياً : ظهور طبقة خاصة من العرب تحمل هذه المسئولية اللغوية وتجعل من نفسها حارساً على هذه المهمة فتصلح فى اللغة ما أمكنها الإصلاح وتتخير بعض الأكفاء من اللغويين العرب للقيام بعمل جاد فى هذا الميدان يحفظ على اللغـة سلامتها وييسر أمر تعلمها على هؤلاء الأجانب الذين انخرطوا فى المجتمع العربى وأرادوا العيش فى كنف الإسلام وربطوا مصيرهم بمصير العرب .

ثالثاً : وعى العرب بلغتهم وإدراكهم لأوجه الصعوبة فيها وإقدامهم - فى جرأة - على عملية إصلاح لغوية كبيرة ؛ كان ينظر إليها فيما مضى على أنها عملية بسيطة ساذجة ولكن الدراسة اللغوية الحديثة تشير إلى أنها عملية معقدة تحتاج إلى جهد ذهنى كبير وتتصف فى نفس الوقت بالحصافة والعمق والذكاء. هذه القضية وأمثالها يجب أن ننظر إليها نظرة جادة ونعمل على تقييمها من جديد لنفهم جوهر الثقافة العربية فهماً مستنيراً ، ونصحح بعض الأفكار الخاطئة التى وقع فيها بعض المفكرين بحسن نية ، كابن خلدون مثلا حينما تحدث فى مقدمته عن أوليات الحضارة العربيـــة فنسب أهم مظاهرها إلى الأجانب الذين انخرطوا فى سلك المجتمع العربى .

رابعاً : بالرغم من تسليمنا باحتمال وجود تسجيلات فى النحو العربى تتصل بظواهره وقواعده وأحكامه ، وربما ببعض أبوابه وآراء العلماء فيها؛ نقول « بالرغم من تسليمنا بذلك كله نقرر أن شيئاً من ذلك لم يصل إلينا وأن أحداً لم يحدثنا بشىء من التفصيل عن محتويات هذه التسجيلات حتى نستطيع أن نتصور بدقة طبيعة الدرس اللغوى فى ذلك العصر من حيث توجيه الاهتمام إلى بعض القضايا النحوية دون البعض الآخر ومن حيث التخطيط لهذا الدرس وطريقة تنفيذ هذا التخطيط . وهذا هو الأمر الذى يؤكد حيرتنا ويضاعف ندمنا على فقدان أوليات الكتابة فى النحو العربى .

كل هذا يحول بيننا وبين إبداء الرأى الصريح فى تطور الدرس النحوى بعد البعثة النبوية حتى حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ؛ ولكنه فى نفس الوقت لا يمنعنا من تخيل صورة تقريبية لذلك بناء على المعطيات الأولية التى ذكرنا - منذ قليل - طرفاً منها ، وعلى القراءة الواعية الواسعة للآثار اللغوية والنحوية التى كتبت فى أواخر القرن الثانى وخلال القرن الثالث الهجرى؛ فليس ذلك إلا امتداداً طبيعيا لما كان يجرى بين العلماء والدارسين فى الفترة السابقة ؛ ومؤلفو كتب النحو فى أواخر القرن الثانى وخلال القرن الثالث

الهجرى ليسوا سوى تلاميذ لأولئك العلماء فى العصر السابق . والصورة المتخيلة للدرس النحوى فى هذه الفترة الزمنية المحدودة يمكن أن تكون ملامحها بهذا الشكل :

قبل البعثة لم يكن لدى العرب عناية باللغة ولا اهتمام بأمر مستقبلها ؛ وفى عصر البعثة وأيام الخلفاء الراشدين وجدت هذه العناية وذلك الاهتمام بحكم إدراك أولى الأمر لمكانة اللغة بالنسبة للدين الجديد وتعاليمه و بالنسبة لمستقبل اللغة نفسها أثناء ارتحالها مع هذا الدين فى البلاد الأجنبية من آسيا وأفريقيا وأوروبا . وتمّثلت هذه العناية فى إظهار الاشمئزاز لسماع لحن أو خطأ لغوى، وفى محاولة إصلاح ذلك ما أمكن ؛ ثم فى الدرس الجاد للغة العربية وما يلازمها من صعوبات نطقية وتنظيمية وكتابية ، وفى الاستجابة لهذه الصعوبات والوصول إلى حلول موفقة لها ؛ ثم فى طرح بعض المسائل اللغوية والظواهر النحوية للنقاش والتحليل وإبداء الرأى والتعليل ، وهنا اتسع مجال الدرس اللغوى وتعددت ميادينه وكثر العلماء والدارسون فيه ؛ غير أن موضوعات الدرس لم تكن محددة ولا مترابطة ولا سائرة على منهج من المناهج التى سنراها فيما بعد ، كانت المسألة الدينية تجر إلى مسألة لغوية أو نحوية أو صرفيه، كما كانت المسألة النحوية تجر إلى مسألة دينية أو صرفية أو أدبيه ؛ وهكذا كان النحو خليطاً بغيره من المسائل العلمية الأخرى ، ولكنه شمل - رغم ذلك كله - أهم وأكثر القضايا التى كانت أساساً للدراسات النحوية بالنسبة للأجيال التالية، والتى كانت بمثابة رصيد ضخم عكف عليه العلماء فيما بعد لجمعه ودراسته ثم اعتمدوا عليه لتأليف الكتب النحوية العديدة ، ولعل أهم أثر بين أيدينا يلقى كثيراً من الضوء على هذه الصورة المتخيلة للدرس النحوى ويقربها إلى الذهن هو كتاب سيبويه ، الذى يعتبر سجلا صادقاً لما كان يجرى بين العلماء فى الميدان النحوى ، ولما كان يصدر عنهم من آراء فى المسائل النحوية .

الباب الثانى

الدرس النحوى فى الفترة الممتدة من سيبويه
حتى الزمخشرى

لماذا اختيرت هذه الفترة بهذا التحديد ؟

هناك عوامل متعددة تحكمت فى هذا الاختيار ويمكن إجمالها فيما يلى :

أولا — فى هذه الفترة ينتقل النحو من مرحلة الدراسة الشفوية المتعددة الجوانب ، المتشعبة الموضوعات ، إلى مرحلة التسجيل والتنظيم والتصنيف ؛ فتبرز معالم النحو فى صورة تكاد تكون مستقلة رغم ما يشوبها من توسع واستطراد .

ثانياً — يعتبر سيبويه أهم تلميذ للرعيل الأول من أئمة اللغة ؛ كما يعتبر أول عالم يكرس مجهوده الذهنى بصورة متخصصة إلى حد كبير فى الدرس النحوى بمعناه الواسع . إذ قبل سيبويه لم يكن هناك - فيما نعتقد - متخصصون فى النحو ، وكانت ميادين المعرفة جميعا تكاد تلتقى تماما فى عقول أولئك العلماء ، ومعالم الدرس النحوى قبل سيبويه لم تكن واضحة ولم يكن له تخطيط معين ولا منهج محدد ؛ شتات من المسائل اللغوية - ومنها النحو - كان موضوعا للنقاش والجدل وإبداء الرأى واستخلاص النتائج ، كالمسائل المتصلة بالأدب أو النقد أو التجويد أو الصرف أو الصوتيات .

وليس من شك فى أن سيبويه قد عزل عن النحو كثيراً من القضايا البعيدة عن ميدانه بشكل واضح ومهد بذلك الطريق للمباحث النحوية الخالصة ، وهذا أمر لم نعهده من قبل .

ثالثا — كتاب سيبويه يعتبر أول كتاب فى النحو العربى يصل إلينا فى صورة تكاد تكون متكاملة وعلى درجة كبيرة من الثقة والاطمئنان ؛ فهو

يصور نقلة للنحو العربى ومظهرا من مظاهر تطور درسه ؛ إذ أصبح طلاب الدرس النحوى يبتغون فى هذا الكتاب، قراءة وفهما واستيعابا بعد أن كانوا يبتغونه أو يتلقونه سماعا من أفواه العلماء .

لهذه الأسباب مجتمعة آثرنا أن يكون حديثنا عن الدرس النحوى وتطوره محصوراً فى هذه الفترة الزمنية الممتدة من سيبويه حتى الزمخشرى ؛ وهى فترة تختلف تماما عن الفترة السابقة بالنسبة للدرس النحوى وما طرأ عليه من تغيير .

هل هناك تخطيط للدرس النحوى عند سيبويه ؟

قبل الحديث عن التخطيط أو المنهج يحسن أن نلقى نظرة على كتاب سيبويه :

يصور هذا الكتاب جانبين هامين من جوانب الدرس النحوى ؛ الأول: تصويره بوضوح لجهود النحاة السابقين، ومواطن اهتمامهم من خلال ما يرويه لنا من آرائهم واختلافهم فى بعض قضايا النحو ومسائل اللغة ، ومدى ما كان يشغلهم بالدرجة الأولى ويعنيهم من التراكيب اللغوية؛ وحسب الكتاب أنه يرينا ٨٥٨ رأيا للأئمة السابقين مثل : الخليل بن أحمد ، ويونس ابن حبيب ، والأخفش ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، وأبو زيد الأنصارى .

الجانب الثانى : هو موضوع الدرس النحوى كما يراه سيبويه نفسه ، وكما يتمثله فى وضع الضوابط والقواعد وتقنين الأحكام ، بعد استخلاصها من القوالب اللغوية ، عن طريق القياس واضعاً فى اعتباره قبل أى شىء آخر ما يهم الدارسين للنحو فى ذلك العصر .

منهج كتاب سيبو

لقد تحدث الباحثون كثيراً عن منهج سيبويه فى كتابه ، ونكاد نحصل على إجماع منهم أن الكتاب خال من منهج ، وأن ما جاء فيه من فصول وأبواب مضطرب لا تجمعه وحدة، ولا تربط بين أجزائه رابطة .

أما رأينا فى هذا الكتاب فهو يخالف ذلك ؛ فهو - رغم ما يبدو عليه من أنه تصنيف للقوالب اللغوية لا للقواعد النحوية - يكشف عن أمر هام

وينم عن حقيقة ينبغى ألا تغيب عنا ؛ هذه الحقيقة هى أن سيبويه فى جمعه لهذه المادة اللغوية الغزيرة — وفى تصنيفه لها بناء على ماتشترك فيه كل مجموعة من أحكام نحوية — قد راعى أمرا هاما سيطر على ذهنه وعمله فى وقت واحد ؛ ذلك أنه جعل المادة اللغوية فى قسمين كبيرين ؛ جمع فى القسم الأول منهما : القوالب اللغوية المشتملة على تقنينات ، وقضايا وأحكام ، نحوية ؛ وجمع فى القسم الثانى : القوالب اللغوية المشتملة على تقنينات ، وقضايا ، وأحكام صرفية .

يدل هذا — من غير شك — على أن تخطيطا للعمل اللغوى فى هذا الكتاب كان ماثلا بوضوح فى ذهن المؤلف ، وأن معالم منهج واضح كانت تفرض عليه السير بيقظة وحــذر فى طريق التأليف ؛ وحسبه أن يضع النحو وقضاياه فى جانب من كتابه ، ويضع الصرف وقضاياه فى جانب آخر .

صحيح أن هذا المنهج قد اختــل واضطرب فى إطاره العام وفى نظر المحدثين حينما وجدوا فى القسم الخاص بالصرف ومسائله ، بعض القضايا النحوية التى كان ينبغى أن توضع فى القسم الأول ، أى القسم الخاص بالنحو ؛ وذلك مثل باب القسم وباب الممنوع من الصرف ، فقد ألفنا وجود هذين البابين مدروسين ضمن أبواب النحو فى المؤلفات النحوية التى جاءت بعد سيبويه . ويظهر أن هذا كان من أهم الأسباب التى فتحت باب النقد والتجريح أمام من تعرضوا للبحث عن منهج سيبويه .

ولكن ألا يمكن القول بأن هذين البابين يقتربان من الصرف ويمتان بصلة إلى أبوابه ؟

إننا نرى ذلك بوضوح فيما يختص بباب الممنوع من الصرف حيث يقوم على صيغ خاصة تكثر مغايرتها للصيغ اللغوية الكثيرة المألوفة ، مما جعلها تخضع فى إعرابها وتنظيمها الشكلى لنظام جديد وتخرج على قاعدة أمثالها من الصيغ

المألوفة ، فهناك الأسماء الأجنبية التى لا نظير لها فى العربية ؛ وهناك الأسماء التى جيء بها على وزن الأفعال فأشكل أمرها فى نظر الدارس اللغوى ؛ وهناك الأسماء التى عدل بها عن الصيغ المألوفة فكونت طائفة غريبة عن المألوف فى أصلها ؛ وهناك الأسماء التى طالت بشكل غير معهود فى اللغة العربية فأصبحت لا تحتمل الكسر لثقله مع طول هذه الأسماء . وهكذا يقوم باب الممنوع من الصرف على صيغ تغاير ماهو مألوف فى العربية مما جعل الجانب النحوى فيه ، لايكاد يرى فى زحمة هذه الصيغ وما اعتراها من غرابة وتغيير .

ويبدو من هذا أن الأسماء الممنوعة من الصرف همها الأكبر منصرف إلى التغيير المتصل بصيغها ؛ وهذا يقربها جداً من العمل الصرفى أو البحث الصرفى ، الذى يهتم أساسا بالصيغ المختلفة وما يطرأ عليها من تغيير ؛ وهذا يجعل ظاهرة الإعراب وتنظيم الشكل أمراً ثانويا .

ومن أجل ذلك يمكن — على عكس ماذهب إليه الباحثون عن منهج سيبويه — أن نعتبر هذا الصنيع من صاحب الكتاب لفتة واعية ذكية لم يدركها ولم يتنبه لها أولئك الذين جاءوا من بعده .

أما ما يختص بباب القسم فموضعه فى قسم الصرف متعب ومحير حقاً ؛ ولا نجد تعليلا لذلك سوى أحد أمرين :

أحدهما : أن يكون هذا الباب قد حشر حشرا فى قسم الصرف بواسطة من تصدوا لتنظيم الكتاب بعد سيبويه لأدنى ملابسة ؛ ولهذا نظير فى عدد من الكتب القديمة حين قام تلاميذ المؤلف ،أو المقربون إليه ،أو الحريصون على حفظ آثاره وتسجيلها للأجيال القادمة دون أن تكون هذه الآثار قد وضعت وضعاً نهائيا بيد صاحبها نفسه أو تحت إشرافه . وكتاب سيبويه — فى صورته التى وصل بها إلينا — يشير إلى أن صاحبه قد توفى قبل أن

يتمكن من تنظيمه وإتمامه وإلقاء نظرة شاملة عليه ؛ فقد ترك بدون مقدمة تشرح أهدافه ونظامه وأسباب تأليفه وسبيل العمل فيه ؛ كما ترك كذلك بدون خاتمة أو ما يشبه الخاتمة على الأقل كما ألفنا ذلك من علماء العصر أو علماء العصور التالية .

الثانى : هو نظرة الناس فى ذلك الوقت إلى ما يمكن أن يعتبر نحوا وما يمكن أن يعتبر صرفا .

إننا حتى الآن لا نجد فى الكتب النحوية والصرفية المؤلفة فى هذين العلمين، والمتداولة بين أيدى الدارسين، تفريقا واضحا، ولا تحديدا حاسما، بين موضوعات هذا أو ذاك .

بعض الأبواب الصرفية توجد مدروسة فى النحو بحكم أنها صيغ تعمل عمل الفعل كالمشتقات من اسم الفاعل ، واسم المفعول، والصفة المشبهة ؛ فهى بحكم عملها فى غيرها ، وبحكم ما يترتب على ذلك من التغيير فى الشكل تعتبر مبحثا من مباحث النحو ؛ وبحكم كونها قوالب لغوية تتعرض لألوان من التغيير الداخلى فى البنية تعتبر مباحث صرفية .

المسألة إذن اعتبارية ؛ ونحن نميل إلى أن نأخذ فى الاعتبار الأمر الأول .

ونعود مرة أخرى وفى إيجاز إلى الحديث عن الممنوع من الصرف فنضيف إلى ما ذكرناه منذ قليل أن سيبويه كان قوى الإحساس بالمنهج الذى سار عليه فى كتابه ؛ فهو لم يقصر حديثه عن الممنوع من الصرف فى قضايا علم الصرف فقط ، أو فى القسم الخاص بالمباحث الصرفية ؛ وإنما تناول بعض قضاياه كذلك فى القسم الخاص بالمباحث النحوية[1] ؛ ولعل ذلك قد فات

---

(١) الكتاب . ج ١ . ص ٨ . ط . بولاق

على الباحثين ولم يروا سوى حديثه عنه فى القسم الخاص بقضايا الصرف فأشكل عليهم الأمر واعتبروا وضع الباب فى غير مكانه .

ويفهم من كلام سيبويه — حين يتحدث عن الاسم الممنوع من الصرف ضمن القضايا النحوية — أن السبب فى حرمان الاسم المشبه للفعل من الجر هو عدم وجود نظير لبنائه فى اللغة العربية ؛ فكأن غرابته هى الأساسُ فى منعه من الصرف ؛ فهو يقرر أن الاسم يمنع من الصرف إذا أشبه الفعل وكان فى أوله زيادة أو إذا أشبه الفعل ولم تكن فى أوله زيادة ، شريطة ألا يكون لبنائه نظير فى الأسماء العربية : أما إذا أشبه الفعل، ولم يكن فى أوله زيادة ، وكان لبنائه نظير فى الأسماء العربية ، فهو مصروف .

وبهذه المناسبة، من المفيد أن نعرف أن ظاهرة الإعراب للأسماء المنقولة من لغة أجنبية إلى لغة معربة تكاد تكون ظاهرة لغوية عامة ؛ إذ أن هذه الأسماء تلتزم طريقة خاصة فى إعرابها ، فلا تخضع للطريقة أو القاعدة التى تتحكم فى إعراب الأسماء الأصيلة فى اللغة . ويمكن ملاحظة ذلك فى الاغريقية واللاتينية بصفة خاصة حيث يوجد حشد من الأسماء الأجنبية نقلت إليها من الاغريقية ومن اللغات الآسيوية والأفريقية .

هذا ما يمكن أن يقال باختصار عن التخطيط العام لسيبويه فى كتابه الذى جمع فيه قضايا النحو ، وقضايا الصرف ، بجانب القضايا الأخرى المتصلة بالميادين اللغوية والدينية والأدبية ، والتى دفعه إليها نوع من التوسع والاستطراد والرغبة فى معالجة المسائل العلمية لأدنى ملابسة .

وهناك تخطيط خاص أو داخلى نجد سيبويه ملتزماً به وحريصاً عليه فى خلال معالجته للجزئيات المكونة للفصول أو الأبواب ؛ ويمكن إبراز معالم

هذا التخطيط الداخلى بواسطة ظاهرتين : الأولى تتمثل فى تصنيف القوالب اللغوية المتشابهة أو التى تجمعها خاصية واحدة ؛ والكتاب ملىء بالأمثلة من ذلك وبالشواهد عليه ، فلا تكاد تخلو صفحة واحدة من هذه الظاهرة ؛ وسنكتفى هنا بمثال واحد : الحديث عن ـ أنّ ـ مفتوحة الهمزة مشددة النون[1] . فى هذا الحديث يوضح سيبويه أولا الفروق بين ـ إن ـ و ـ أن ـ ثم يصنف بعد ذلك المادة اللغوية وفقاً لاستعمالات ـ أنّ ـ المختلفة واضعاً كل صنف من الاستعمال فى باب خاص ؛ وهـــذا صنيعه :

« هذا باب من بواب ـ أن ـ تقول ظننت أنه منطلق ... وددت أنه ذاهب ... لولا أنه منطلق لفعلت ... لو أنه ذاهب لكان خيراً له ... » .

ويمضى سيبويه فى سرد عدد من الأمثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب شعراً ونثراً مبيناً سبيل الاستعمال ومورداً آراء النحاة ووجه الإعراب فى ذلك ، ثم يقول :

« وهذا باب آخر من أبواب ـ أن ـ تقول ذلك وأن لك عندى ما أحببت ، وقال الله عز وجل : ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين وقال ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ... ثم يقول : « وهذا باب آخر من أبواب ـ أن » تقول جئتك أنك تريد المعروف إنما تريد لأنك تريد المعروف . . . وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ...فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ،وقال ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أنى لكم نذير مبين... وأن المساجد لله فلا ندعو مع الله أحداً » .

ثم يمضى بعد ذلك فى تصنيف القوالب اللغوية المستعملة فيها ـ أنّما .

ولو قارنا صنيع سيبويه بصنيع النحاة بعده فى هذه القضية لوجدنا فرقاً كبيراً بينه وبينهم : سيبويه يغرق القارىء فى بحر من النماذج اللغوية مبيناً له

---

(١) الكتاب ح ١ ص ٤٦١ ، ط بولاق

طرق الاستعمال العربى، ووجه إعرابها ، ورأى النحاة فيها ؛ وهذا النمط من التصنيف يكاد يكون متبعاً فى كل أبواب الكتاب وفصوله .

أما النحاة بعد سيبويه فإنهم يوجهون همهم إلى صياغة القاعدة النحوية أولا صياغة علمية منهجية تكشف عن مـــدى التأثر بالنظريات والمبادىء الفلسفية : تعريف ، ثم تقسيم للأنواع ، ثم حصر للنماذج المستعملة ؛ فتراهم هنا مثلا يفرقون بين - إن - المكسورة الهمزة ، و - أن - المفتوحة الهمزة ؛ ثم يذكرون مواضع استعمال الأولى مع ذكر الأمثلة على ذلك ، ومواضع استعمال الثانية مع ذكر الأمثلة .

الظاهرة الثانية تتمثل فى طريقة سيبويه لكى يصل إلى استخلاص القاعدة النحوية ووضعها فى الصيغة الملائمة ؛ وهى طريقة كان يحرص عليها كثيراً وتتمشى مع أحدث الطرق التربوية فى العصر الحديث ولم يعرف الكثير منا أن سيبويه فكر فيها ومارسها عملياً دون أن يكون لها صياغة نظرية . وهذه قضية هامة أخرى ينبغى أن تثار وتدرس لكى نعرف تراثنا الثقافى على حقيقته ونعطيه مايستحق من تقييم .

طريقة سيبوية هى الطريقة الاستنتاجية؛ بمعنى أنه يعرض فى كل موضوع يعالجه عدداً من التعابير والشواهد اللغوية ذات الصلة بنفس الموضوع ، ثم يستنتج من ذلك ما يمكن أن يكون ضابطاً أو قاعدة يمكن تطبيقها على كل ما يتدرج تحتها من أمثلة تدخل فى إطارها العام . وقد يلجأ سيبويه إلى عرض النماذج وتحليلها مهيئاً للقارىء أو الدارس وسائل الاستنتاج وتاركا له الفرصة لكى يقوم بنفسه بالعملية الاستنتاجية الأخيرة؛ وقد يلجأ إلى طريقة أخرى ، ولكنها من نفس الميدان ؛ فبدل أن يهتم بالتفصيل فى ذكر الأمثلة ثم ينتهى بالإجمال فى استنتاج القوانين والأحكام نجده يبدأ بالإجمال

فيذكر أقسام الباب وما يتعلق بكل قسم منها ثم ينتهى بالتفصيل حيث يذكر الأمثلة ويتناولها بالشرح والتعليل والتعليق (١) .

وبعد : فعلى ضوء ماتقدم ، ورغم ما قيل عن اضطراب المنهج لدى سيبويه أو انعدامه ، واعتماداً على قراءتنا المتأنية لهذا الكتاب خلال ما يزيد على خمسة عشر عاماً نقرر فى طمأنينة أن سيبويه كان متمثلا لما يصنعه فى هذا الكتاب . واعياً لما يكتبه فيــــه ، مخططاً لقضايا الدرس النحوى تخطيطاً يكشف عن رؤية واضحة وينبىء عن إدراك وإلمام لصورة الموضوع الذى وقف نفسه لأجله من ناحية الشكل ، ومن ناحية المضمون ، بالرغم من سعة المادة التى كانت بين يديه وامتداد أبعادها .

ويدهش القارىء حقاً لهذا اللغوى العبقرى فى تلك الفترة المبكرة بالنسبة للتأليف اللغوى أمام تبويبه وتفصيله وتصنيفه لهذا الحشد الهائل من المسائل النحوية واللغوية ومن القضايا المتعددة ، المترامية ، المتشابكة ؛ هذه القضايا وتلك المسائل التى كانت كفيلة بأن تغرق من يتصدى لبحثها فى بحر متلاطم أو أن تهوى به فى دوامة ليس لها من قرار .

وتزداد الدهشة حقاً حينما يقارن المرء صنيع سيبويه فى العربية بصنيع نحاة الإغريق واللاتينيين الأوائل فى نحو لغاتهم وتسجيل قواعدها وإحصاء ملاحظاتهم عليها .

ومع ذلك فقد استطاع سيبويه أن يتمثل صورة الموضوع ، الذى يعالجه ، رغم ضخامتها ومنهج الدرس النحوى رغم بدائيته تمثلا يقوم أساساً على النظر فى اللفظ المفرد أو الكلمة . ثم النظر فى الجملة أو التركيب اللغوى ،

---

(١) لمزيد من التفصيل لمن يرغب فى هذا يحسن الرجوع إلى محاضرة الأستاذية التى تقدمنا بها إلى جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٦ بعنوان - أول كتاب فى النحو العربى - وطبعتها مجلة آداب الاسكندرية ديسمبر سنة ١٩٥٧

فى حديث سيبويه عن اللفظ المفرد نجده يخطو سريعاً ولا يعنى بالتفصيل؛ ويخيل إلى القارىء هنا أن مادة البحث لدى سيبويه قليلة ومحدودة ؛ فهو يتحدث عن أقسام الكلمة حديثاً مقتضباً من وجهة النظر الفلسفية أو المنطقية لا من وجهة النظر اللغوية التى كنا نتطلع إليها بشغف من هذا العالم اللغوى المبكر . إذ يقسمها إلى إسم وفعل وحرف على نمط ما نجده عند فلاسفة الإغريق . ومن سوء الحظ لقواعد اللغة العربية أن استقر فى أذهان نحاة العرب صدق وسلامة هذا اللون من التقسيم للكلمة اللغوية حتى العصر الحديث . ولم نجد تحرراً من هذا التقسيم الضيق إلا بعد فترة زمنية طويلة حينما فكر بعض النحاة فى قسم رابع عولج على استحياء وأضيف فى تردد وسمى الخالفة ، وهو اسم الفعل ، الذى لم يمكن اعتباره إسما خالصاً ولا فعلا خالصاً .

يتبع سيبويه حديثه عن أقسام الكلمة بالحديث عن الشكل الاعرابى الوارد على آخرها ، وكذلك الشأن بالنسبة للشكل البنائى لها ، ويخلص من ذلك إلى الحديث عن الجملة أو التركيب اللغوى ممثلا فى قضايا المسند والمسند إليه . غير أنه قبل أن يدخل فى تفصيل أجزاء الاسناد وما يتصل بها وما تتفرع إليه يعرض مشاكل هذا التركيب اللغوى كأجزاء مكونة لكل ، أو ككل مكون من أجزاء ؛ وذلك كموضوع الصلة بين اللفظ والمعنى فى أجزاء الجملة ، ثم ما يعرض للفظ فى ثنايا التركيب من حذف وتعويض ؛ وكموضوع الاستقامة والاستحالة فى الكلام أو ما يحتمل الشعر ؛ بمعنى معاملة بعض ألفاظ فى التركيب النثرى كما تعامل فى التركيب الشعرى .

إلى هنا وبقدر محدود يكتفى سيبويه بما ذكره من الكلمة أو اللفظ المفرد لينتقل إلى الحديث عن التركيب الاسنادى بشقيه : الفعلى ثم الاسمى ، حيث يبدى اهتمامه ويلقى بثقله فى هذا المبحث مشيراً بطريقة غير مباشرة إلى أنه أهم بكثير من المبحث الأول الخاص بالمفرد . وعلى هذا يمكن اعتبار

هذا المبحث ، المبحث الثانى أو القسم الثانى من أقسام الكتاب الرئيسية ، وإن كان سيبويه لم يشر إلى ذلك من قريب أو بعيد ولكن المتأمل فى كتاب سيبويه وفى صنيع النحاة من بعده يستطيع أن يلحظ هذا بوضوح .

إن اهتمام سيبويه بهذا القسم ، الذى سخر له أكبر قدر من نشاطه العقلى وحصيلته العلمية ، واهتمام النحاة من بعده بنفس المبحث يعتبر أمراً طبيعيا ، فاللفظ المفرد من حيث هو ، لا يؤدى إلا معنى مفرداً ، والمعانى المفردة لا تكون لغة ، وإنما الجمل والتراكيب هى التى تكونها ، فاللغة باعتبارها أداة للتفاهم قد وجدت لتنقل المعانى من المتكلم إلى السامع بصور متعددة ومختلفة ، فى تراكيب فعلية وإسمية بما فى ذلك من صلات وأسرار بين أجزاء الجملة .

سيبويه فى هذا المبحث من الكتاب ، الذى يستغرق أكثر من نصفه لا يكاد يهمل تركيباً لغوياً استعملته العرب ويشير فى نفس الوقت من قريب أو بعيد إلى ظاهرة لغوية تخدم غرضاً من أغراض الكتاب أو إلى قاعدة نحوية تضيف شيئاً إلى حصيلة المباحث الأخرى . وفوق ذلك فهو يصطنع تراكيب من عنده لأغراض خاصة .

يجىء بعد ذلك القسم الثالث والأخير من الكتاب ؛ وهو بحث خاص بالمفرد أو الكلمة ، ولكنه فى هذه المرة يبحث الكلمة من حيث البنية ، والصيغة ، والغرابة ، إذا ما قورنت بجمهرة الكلمات العربية الأخرى ؛ وكل ذلك ينضوى تحت لواء القضايا الصرفية .

يتضح من ذلك أن سيبويه كان لديه تخطيط عام للدرس النحوى يتمثل فى المباحث الرئيسية الثلاثة : مبحث المفرد ، مبحث الجملة ، ثم مبحث المفرد لا من حيث جوهره وشكله الاعرابى ووظيفته فى ثنايا التركيب ، ولكن من حيث صيغته وبنيته وغرابته .

إذا كان التخطيط العام للكتاب قد أصبح واضح المعالم بين القسمات فإن التخطيط الخاص للمباحث الداخلية لا يزال مضطرباً فى ذهننا ومحيراً بالنسبة لنا رغم محاولاتنا المتكررة أملا فى الوصول إلى الفكرة التى كانت عند سيبويه حين صنف جزئيات كل باب، وأبواب كل مبحث من هذه المباحث الثلاثة .

افترضنا مرة أن فكرة العامل والمعمول هى التى كانت أساس تصنيفه الداخلى ، غير أن هذا الافتراض لم يكتب له التوفيق بسبب ما أصابه من خلل أثناء السير .

وافترضنا مرة أخرى أن فكرة الشكل الإعرابى هى التى كانت الأساس فى التصنيف الداخلى، ولكن لم يكتب له التوفيق كذلك بسبب عدم استقامته وتداخل بعض الجزئيات فى بعضها الآخر وهى من ميادين مختلفة .

على أن هذين الافتراضين كانا إلى حد كبير أساساً للتصنيف النحوى عند كثير من النحاة بعد سيبويه . ومع ذلك فلم نيأس من المحاولة ؛ سنراجع أبواب الكتاب ،ونعاود قراءتها والتفكير فيها ، لعلنا نهتدى - يوماً ما - إلى وجه الحقيقة إيجاباً كان أم سلبا .

يمكن أن نعثر فى ثنايا الكتاب على أمور كثيرة تشير إلى أن سيبويه كان مخططا له متمثلا لمنهجه ؛ لعل أهمها وأبرزها هو ذلك التعبير الذى يطالعنا فى مواطن متعددة من الكتاب : قد بينا فيما مضى ... وستراه إن شاء الله تعالى .

كما يمكن أن نكتفى بهذا القدر من الحديث عن سيبويه وتكوينه لمدرسة نحوية بواسطة مجهوده فى نقلة الدرس النحوى إلى مرحلة جديدة تمتاز بالتخطيط والتصنيف بعد جمع المادة وما دار حولها من آراء وأفكار ؛

ولا نرى بأسا فى ذكر بعض ملاحظات سريعة تبين معالم طريقة سيبويه فى معالجته للقضايا التى نعرض لها :

أولا — لا يهتم سيبويه بشكل الكلمة فى التركيب اللغوى قدر اهتمامه بمعناها ووظيفتها وصلتها بغيرها من مفردات الجملة ؛ ومعنى هذا أن التصنيف النحوى المؤسس على شكل الكلمة الاعرابى لم يعرف بطريقة حاسمة إلا فيما بعد حينما تحول الحديث عن الاسناد وأنواعه وأجزائه وخواصه إلى حديث عن الأشكال الإعرابية : مرفوعات ، ومنصوبات ، ومجرورات ، ومجزومات . وهذا موقف طبيعى ؛ إذ أن الحديث عن الشكل أو عن القاعدة النحوية مجردة من النص اللغوى لا يتأتى إلا بعد فترة زمنية تسمح للتفكير المنطقى - لا السليقة اللغوية - أن يتدخل فى صيغ القاعدة النحوية لنظرية تجريدية ، ولا يتلاءم هذا عقليا مع عصر سيبويه .

ثانيا — المصطلحات النحوية ، المألوفة فى الكتب النحوية لا نعثر عليها إلا نادراً عند سيبويه وهـذا بدوره موقف طبيعى يتمشى مع أوليات البحوث العلمية قبل أن تستقر أوضاع العلوم وتثبت مصطلحاتها . ومن أجل ذلك نجد سيبويه يلجأ إلى مصطلحات فجة بدائية ، وقد يستعيض عن ذلك بالدوران حول القضية أو المسألة المشتملة على الظاهرة النحوية ؛ مثل : هذا باب ما ينتصب من الأماكن والوقت ، وذاك لأنها ظروف تقع فيها الأشياء وتكون فيها ، فانتصب لأنه موقوع فيها ، ومكون فيها ، وعمل فيها ما قبلها ، كما أن العلم إذا قلت أنت الرجل علما عمل فيه ما قبله وكما عمل فى الدرهم عشرون إذا قلت : عشرون درهما ، وكذلك يعمل فيها ما بعدها وما قبلها ... » .

ولقد صيغ هذا كله فيما بعد بهذه المصطلحات الثلاثة : ظروف الزمان ، ظروف المكان ، والتمييز .

ثالثا - ظاهرة الاستطراد شائعة عامة فى كتاب سيبويه ؛ فالمسألة الواحدة تستدعى مسائل أخرى ، والموضوع قد يتشعب إلى موضوعات عديدة ؛ وصنيعه هذا يعتبر صورة مصغرة لما كان يجرى بين العلماء وفى مجالسهم يوم كان الدرس اللغوى أو النحوى شفويا ؛ غير أن استطراد سيبويه لا يبعد القارىء كثيرا عن الموضوع الأصلى وكثيرا ما يقدم له بعض الفوائد العلمية ؛ وربما وجد القارىء فى هذا الاستطراد نوعا من المتعة العلمية حيث يعرض عليه نماذج من النصوص اللغوية مصحوبة بالبيان والشرح ، وذلك عكس ما نجده فى الكتب النحوية المتأخرة حيث يكون الاستطراد مصحوبا بذكر الخلافات والمناقشات وتعارض الافكار وتشابك الآراء .

رابعا — يكثر سيبويه من الأمثلة والشواهد بدرجة لا نظير لها عند غيره من النحاه ؛ ويتضح من ذلك أنه يريد جمع المتشابهات وعرض النماذج رغبة فى توضيح الفكرة وبيان ما يلازم استعمالها من اطراد ؛ ومصدر سيبويه فى التمثيل آيات القرآن الكريم . وكلام العرب شعراً ونثراً ، ثم ما يصطنعه هو من التراكيب اللغوية لأغراض خاصة .

وليس فى الكتاب كله ، حديث واحد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما أثار كثيراً من الجدل بين العلماء ، وكان موضع تساؤل بين الدارسين : هل يستشهد بأحاديث الرسول عليه السلام على أنها نصوص لغوية سليمة أم لا ؟

ونعتقد أن سيبويه هو أول من أثار هذه القضية بصنيعه فى كتابه ؛ فقد فهم بعض النحاة من هذا الصنيع أن الصواب عدم الاستشهاد بالأحاديث ؛ وفهم البعض الآخر أن مجـرد امتناع سيبويه عن الاستشهاد بالأحاديث لا يدل على أنها لا تصلح أن تكون موضع استشهاد ، وهكذا ترددت أصداء هذه القضية عند كثير من المؤلفين فى النحو بعد سيبويه حتى العصر الحديث

حيث نجد الشيخ حمزة فتح الله فى كتابه ـ المواهب الفتحية ـ يعرض هذه القضية ، ويتتبعها عند كثير ممن كان لهم رأى فيها ، ويشرح وجهة نظره الخاصة بالنسبة لها .

خامساً ــ قلما يلجأ سيبويه إلى التعليل لبعض القواعد النحوية أو الظواهر اللغوية ، وهو ــ إن فعل ــ لا يلجأ إلى التعليل المنطقى المتسم بالتجريدية ، ولا إلى التعليل العقلى المتعب ؛ وإنما هو تعليل فطرى فى متناول الكثير ، تعليل مستمد من فهم النص اللغوى فهما لا تكلف فيه ولا صنعة ؛ وذلك مثل : « ومن ثم قال يونس امرُرْ على أيُّهُم أفضَلُ إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ، يعنى إن مررت بزيدٍ أو مررت بعمرٍو .

واعلم أنه لا ينتصب شىء بعد إن ، ولا يرتفع إلا بفعلٍ ، لأن إن من الحروف التى يبنى عليها الفعل ، وهى إن المجازاه ، وليست من الحروف التى يبتدأ بعدها الأسماء ، لتبنى عليها الأسماء ، فإنما أراد بقوله : إن زيدٍ ، وإن عمرٍو ، إن مررت بزيدٍ وإن مررت بعمرٍو ، فجرى الكلام على فعل آخر وانجر الاسم بالباء لأنه لا يصل إليه الفعل إلا بالباء » (١) .

(١) الكتاب . جـ١ ص١٢٣ ـ ط بولاق .

ما هو مدى المجهود الشخصى لسيبويه فى كتابه ؟

نسبة الكتاب إلى سيبويه لم تسلم من التشكيك ، كما أن المادة العلمية الغزيرة التى احتواها هذا الكتاب لم تسلم كذلك من التشكيك ؛ وقد قيل فى ذلك كلام كثير نسب بعضه إلى القدماء وعزى البعض الآخر إلى المحدثين معتمدين فى ذلك على الروايات المتناقضة بشأن الكتاب ، ومادته ، وصاحبه لدى العلماء السابقين ومنهم من كان معاصرا لسيبويه نفسه كيونس ابن حبيب ، فقد روى عنه أنه قال حينما أخبر بكتاب سيبويه وأنه يحتوى على ألف ورقة فى علم الخليل : « ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟ جيئونى بكتابه فلما نظر فى كتابه ورأى ما حكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكى عنى »(١) .

هذه القصة وأمثالها قد فتحت الباب أمام النقاد والمتشككين وخلقت لونا من التردد فى قبول ما يضمه هذا الكتاب الضخم من المعارف اللغوية والآراء النحوية والنصوص العربية ، ولقد غذى هذا الشك وزاد من تقوية جانب النقد ضخامة الكتاب وغزارة مادته فى وقت مبكر جدا ، بحيث لا تقدم المعطيات الأولى للدرس اللغوى الدليل الواضح على أن ظهور الكتاب يعتبر تطورا طبيعياً لنشأة الدرس اللغوى وأخذه سبيل النمو والاتساع ، كما غذى الشك أيضاً وقوى جانب النقد لدى بعض المحدثين ما نراه فى الكتاب من مئات الآراء اللغوية والنحوية لأئمة سابقين ، ومئات

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . ص ٤٩ . طبعة أولى .

الآيات القرآنية والأبيـات الشعرية المستشهد بها لاثبات قاعدة أو لاستخلاص ضابط للتدليل على ظاهرة من الظواهر اللغوية . ذلك أوحى إلى بعض المحدثين أن يتصوروا ضآلة العمل الذى يمكن أن يكون بذله سيبويه فى هذا الكتاب .

وعلى هذا فلا يخرج مجهود سيبويه عن تسجيل ما كان يدور بين العلماء فى مجالسهم وفى حلقات دروسهم من أفكار وآراء وشواهد ونصوص .

غير أن الدارس لهذا الكتاب والمتأمل فى أبوابه وفصوله يجد أن مجهود سيبويه فيه واضح تمام الوضوح وبارز لا مجال لاخفائه ، ولا للتقليل منه رغم كل ما لوحظ عليه وقيل فيه .

إن التخطيط للكتاب ، والأسلوب المتبع فى تصنيفه ، يكشفان عن عمل علمى جاد،ومجهود ذهنى كبير ، وقد لاحظنا فيما مضى أن سيبويه قد اتبع فى تأليفه لكتابه منهجاً واضحاً كان يلتزم به إلى درجة كبيرة . ويسير عليه فى حدود تكاد تكون مرسومة ، ولو أضفنا إلى ذلك أن سيبويه لم يسبق بمؤلفات نحوية أخرى أو سبق بمؤلفات من هذا النوع ولكنها كانت من السذاجة والضآلة بحيث لا تكون نمطاً من التأليف يمكن الرجوع إليه أو الاسترشاد به نقول : لو أضفنا إلى ذلك أسبقية هذا الكتاب فى منهجه وفى مادته جملة،لظهر لنا بوضوح المجهود المبذول فى الاعداد ، والتخطيط ، والتصنيف ، فهو يكاد يكون نمطاً فريداً فى المؤلفات النحوية .

ومن ناحية أخرى فإن المادة العلمية التى يحتويها هذا الكتاب تصور جانباً آخر من المجهود الذهنى الذى كان لا بد منه لكى يظهر الكتاب فى شكله الذى نراه عليه .

صحيح أننا نجد فى كتاب سيبويه نحو ٩٠٠ رأى لعلماء لغويين سابقين ، كما نجد نحو ٤٠٠ آية قرآنية أحسن اختيارها للتدليل على قواعد النحو ، أو على طرق التعبير ، والأساليب اللغوية المتبعة ، وأكثر من

١٠٥٠ بيتاً من الشعر العربى للاستشهاد بها على وجهة نظر لغوية أو نحوية أوصرفية ، نقول ، صحيح أن نجد ذلك كله فى كتاب سيبويه مما يوحى بضآلة مجهود سيبويه فيه وبتصويره على أنه سجل لمعارف لغوية هى نتاج العلماء السابقين . ولكن ينبغى ألا ننسى أن جمع هذه المعارف مع نسبتها إلى أصحابها ، وأن تصنيفها فى فصول وأبواب وفقاً لتخطيط واضح ، وأن مناقشة بعضها والاستناد إلى أقوال العرب الخلص المتصلة بها ، وبروز الشخصية للمؤلف بالمعارضة حيناً والموافقة حيناً آخر وبإبداء الرأى طوراً والاهتداء إلى الاستنتاج المنطقى طوراً آخر ، نقول : ينبغى ألا ننسى أن ذلك كله يعتبر مجهوداً ضخماً وعملا علمياً أصيلا ، ثم بعد هذا وذاك أليس من الاجحاف أن نغمض العين عن قضية هامة تبناها سيبويه وكان له فضل السبق إليها ، تلك هى قضية تحويل الدراسة النحوية من درس شفوى يستلزم اللقاء بين الأستاذ والطالب إلى دراسة علمية تسجيلية يكفى فيها الحصول على المادة المكتوبة ثم قراءتها ، وفهمها ، وتحصيلها فى أى مكان . وبذلك دخلت الدراسة النحوية فى مرحلة تنظيمية جديدة لا ترتبط بالمكان ، ولا تتوقف على السماع والمشافهة ، بل على الآراء المسجلة والملاحظات المدونة ، والقواعد والأحكام المكتوبة ، والمناقشات المسطرة ؛ ثم إن سيبويه لم يكتف بهذا المجهود المتعدد الجوانب والمختلف المظاهر ، وإنما يتناول مع هذا زاوية شخصية هامة تتمثل فى العدد الضخم من الأمثلة اللغوية المروية بواسطته أو التى صنعها بنفسه مستدلا بها على تثبيت قاعدة لغوية أو رفض حكم لا يخضع للمبادىء العامة فى قضايا النحو ومسائل الصرف .

ومن هنا نجد المبرر للعدول عن تسمية المدارس النحوية بأسماء أما كنها كمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد ، تلك الأسماء التى استقرت وشاعت فى العالم العربى منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ووجدت مؤلفات عدة تبحث فى هذه المدارس وتعالج قضايا النحو على أنها من إنتاج

هذه المدرسة أو تلك ؛ نقول ، من هنا نجد المبرر للعدول عن تسمية المدارس النحوية بأسماء أماكنها إلى تسميتها بأسماء الأئمة الذين برزوا فى هذا اللون من الدراسة وكان لهم فيها أثر ظاهر ومجهود كبير ، مثل مدرسة سيبويه التى نحن بصدد الحديث عنها الآن . ومدرسة الزمخشرى ، ومدرسة ابن مالك ومدرسة العصر الحديث ؛ وهى المدارس التى سنتحدث عنها فيما بعد .

هذا العدول يبرره - كما ذكرنا - موقف سيبويه من جمع المادة النحوية المتعارف عليها لدى أساتذته السابقين ثم التخطيط لها ، وتصنيفها ، والانتقال بها إلى درس يعتمد على القراءة والفهم والتحصيل لا على اللقاء والمشافهة والسماع ؛ وذلك بعد إخضاعها لمبادىء عامة تتحكم فى كلياتها وجزئياتها ؛ كما يبرره أيضاً ما رأيناه من الاعتماد على كتاب سيبويه وتدريسه ، والاهتمام بما جاء فيه لدى الكوفيين والبغداديين والمصريين والأندلسيين ؛ بل إن هذا الاهتمام وصل إلى الدرجة التى جعلت اليهود فى الأندلس ينقلون مضمون كتاب سيبويه الى اللغة العبرية ليكون بمثابة دستور يسيرون عليه فى تنظيم قواعد النحو فى اللغة العبرية .

أليس من المنطق والصواب معاً أن يكون سيبويه صاحب مدرسة نحوية من صنعه ومجهوده بدل أن يكون الممثل لمدرسة البصرة ؟ وكيف نستكثر عليه ذلك وقد اعترف له القدماء بأنه صاحب مذهب مميز فى النحو[1] ؟ .

---

(١) كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١٠٠ تحقيق محمد أبو الفضل . ط . أولى سنة ١٩٥٤

ماهى مكانة كتاب سيبويه على ضوء ماجاء فيه وما قيل عنه ؟

يبدو أن فترة التشكيك فى هذا الكتاب لم تدم طويلا أمام ما استقر فى الأذهان من غزارة مادته ، وسعة معارفه ،وعظم الفائدة التى يمكن أن تتحقق نتيجة قراءته وفهمه وتحصيل ما فيه ؛ فقد انكب العلماء فى جميع الأقطار العربية على دراسته وتنافسوا فى تحصيل مادته بعد أن بحثوا عنه وحصلوا على نسخ منه وأخذوا « يدرسون مسائله ويتفهمون أبوابه وفصوله ويشرحون شواهده وأمثاله ويستنبطون قواعده وأحكامه ؛ ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الكتاب مشاعاً بين العلماء جميعاً ومرجعاً لكل الدارسين فى البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً . ذاع اسم الكتاب إذن فى جميع الأقطار التى لها صلة بالحضارة العربية وارتفعت بواسطته مكانة البصرة من بين سائر العواصم العلمية إذ ذاك[1] » .

كما يبدو أن هذا الكتاب - بما يقدمه من موضوعات لغوية، وبما يصوره من حرص على جمع المادة ، ودقة فى تصنيفها ، ويقظة فى عرض النصوص ، وجودة ذهن فى استنباط الأحكام - قد أصبح الشغل الشاغل للعلماء، يتخصصون فى فهمه وإقرائه للطلاب ؛ وكانت قراءته على واحد من هؤلاء العلماء تعتبر شهادة بالمقدرة فى اللغة والنحو تمنح صاحبها الحق الأدبى فى تدريس النحو وإقراء الكتاب والتأليف حوله ؛ وحدث لكثير من الطلاب أنهم كانوا

---

(١) أول كتاب فى نحو العربية . محاضرة الأستاذية : حسن عون ، مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ديسمبر سنة ١٩٥٨

ينتقلون من مصر إلى آخر سعيا وراء مدارسة النحو ورغبة فى قراءة كتاب سيبويه على أحد الأساتذة المتخصصين فيه. وهكذا استطاع هذا الكتاب أن يستحوذ على أكبر قدر من مجهود العلماء، واهتمام الدارسين، حتى أضحى فى نظرهم «أشبه شيء بالنبع الغزير، وكل ما نشأ من حوله ومن بعده من علوم لغوية يشبه الدوامة التى تستمد منه مياهها لتسير فيما رسمه لها العلماء من اتجاهات فهو مستودع كبير للتراكيب العربية، والاصطلاحات اللغوية، والشواهد الأدبية، وكنز عظيم للأمثلة النحوية والصرفية يجد فيـــه علماء النحو والصرف قديما وحديثا ماهم فى حاجة إليه لشرح قواعدهم والاستدلال على ما يقررون»(١).

لم يكن هؤلاء العلماء ولا أولئك الدارسون فى الأقطار العربية واهمين حينما وضعوا هذا الكتاب فى تلك المكانة من التعظيم والتقدير؛ وإنما كانوا فى ذلك على حق وصواب؛ فهو فى نظرهم يقدم حشدا هائلا من المعارف اللغوية التى ترسم بصدق ودقة لوحة لما كان يوجد فى خلال القرن الأول والثانى من الهجرة من ثقافة لغوية واتجاهات خاصة فى مجال الدراسة والبحث؛ وكانوا ينظرون إليه — وهم على حق فى ذلك — كموسوعة كبيرة لكل المعارف المتصلة باللغة، وكسجل حافل بكل ما كان يدور فى ذلك العصر بين العلماء من حوار ونقاش وخلاف فى الرأى وحرص على الوصول إلى الحقيقة. ولعل هذا الكتاب يعتبر النموذج الفريد فى تصويره لأبعاد الحياة العقلية التى امتزجت فيها عناصر متعددة متباينة من سائر الأجناس ومن مختلف الثقافات فى خلال فترة تزيد على قرن من الزمن ويعز علينا الحصول على معلومات عنها فى غير هذا الكتاب.

ليس هناك كتاب آخر نستطيع أن نعثر فيه على هذه البحوث المتعددة

(١) أول كتاب فى نحو العربية • مجلة آداب الاسكندرية • ديسمبر سنة ١٩٥٨

فى الميدان اللغوى ؛ فأى كتاب غير كتاب سيبويه يمكنه أن يقدم لنا أبحاثاً فى الأصوات وفى طبيعتها وفى صلتها باللغة كوسيلة للتفاهم من ناحية وكأداة للافصاح والبيان من ناحية أخرى ، وأبحاثا فى الصرف ومجالاته المختلفة ، وأبحاثا فى المعانى والبيان والبديع ، وأبحاثاً فى الأدب والنقد الأدبى ، وأبحاثا فى الرواية والسند المتصلين بمتن اللغة ، وأبحاثا فى التجويد والقراءات القرآنية ، وأبحاثا فى فقه اللغة وما يندرج تحته من مسائل وقضايا ، وأبحاثا فى موسيقى اللغة والعروض ، وأبحاثا فى لهجات العرب ودرجاتها من القوة وما يترتب على ذلك من مذاهب وآراء ؛ نقول ، أى كتاب غير كتاب سيبويه يمكنه أن يقدم لنا كل ذلك ؟

ومن أجل ذلك حظى كتاب سيبويه بكثير من الأقوال المأثورة التى تشف عن مكانته العلمية والأدبية لدى العلماء والدارسين ؛ فكانوا يسمونه قرآن النحو ؛ وكانوا يقولون لمن يقدم على قراءته : هل ركبت البحر ؟ وكان كثير من الدارسين يكرس جزءا كبيرا من الوقت والمجهود الذهنى لفهم نصوصه وحفظ متنه ؛ وتلك حظوة لم يظفر بها كتاب آخر فى تراثنا العلمى سوى كتاب المفصل للزمخشرى والمنظومات النحوية كألفية ابن مالك وأمثالها .

ولكى تكون لدينا صورة واضحة عن مكانة هذا الكتاب فى نفس العلماء ومبلغ عنايتهم به وفتنتهم بما فيه ، ينبغى أن نعلم أن عدد العلماء الذين اتخذوه دستوراً فى النحو فدرسوه دراسة مستفيضة ، وفهموا مسائله فهما عميقا ثم كتبوا حوله وعنه ، شارحين لنصوصه تارة ، ومعلقين عليها تارة أخرى ، مستنبطين لما فيه من قواعد طورا ، وملخصين لتلك القواعد طورا آخر ؛ نقول ، إن عدد العلماء الذين فتنوا بكتاب سيبويه وتخصصوا فيه دراسة وتأليفاً يقرب من مائة عالم فى سائر الأقطار العربية المختلفة ؛ وأهم هذه الأقطار فى تقديم أكبر عدد من أولئك العلماء هى بيئة الأندلس والمغرب ؛ إذ وجد هناك ما يزيد على الأربعين عالما .

على أن من بين هؤلاء العلماء من لم يكتف بتأليف كتاب واحد عن كتاب سيبويه وموضوعاته المختلفة ، بل تجاوز ذلك إلى جمع من الكتب تدور كلها حول مجهود سيبويه فى مؤلفه لتوضيح ما غمض فيه وشرح ما استغلق فهمه منه ، وحصر ما تضمنه من قواعد وأحكام نحويه وصرفية ؛ من هؤلاء العلماء المبرد مثلا ؛ فبعد أن قرأ كتاب سيبويه قراءة علمية واعية على الجرمى ، وأتم هذه القراءة على المازنى ، وبعد أن حلل أحكامه وألم بمسائله وأحاط بما فيه اتخذه موضوعاً لأبحاثه وتاليفاته ، حيث ألف خمسة كتب مختلفة ؛ هى : كتاب المدخل إلى سيبويه ، كتاب الرد على سيبويه ، كتاب الزيادة المنتزعة من سيبويه ، كتاب شرح شواهد كتاب سيبويه ، كتاب معنى كتاب سيبويه(١) ؛ ومنهم محمد ابن على ابن اسماعيل المكنى بأبى بكر ، الذى ألف كتابين فى نفس الموضوع : أحدهما : شرح كتاب سيبويه ؛ والثانى شرح شواهد كتاب سيبويه(٢) .

وهناك طائفة أخرى من العلماء اعتمدت اعتمادا كليا أو جزئيا على المادة النحوية والصرفية فى كتاب سيبويه فاستمدت منها ما جعلها تصدر مؤلفات خاصة فى كل من الفرعين — الصرف والنحو — أو تمزج بينهما مزجا يفوق سيبويه فى هذا الصنيع .

وهكذا امتد أثر كتاب سيبويه إلى المؤلفات النحوية والصرفية ، كما امتد إلى العلماء أنفسهم ، إلى مجالات تفكيرهم ولون نشاطاتهم ؛ فكانت مادة هذا الكتاب بمثابة مستودع ، كل واحد يغترف منها مايطفىء ظمأه أو يلائم طبيعة عمله . وحسبنا أن نرجع إلى كتب النحو المؤلفة حتى العصر الحديث لنرى مايتردد فى أبوابها وفصولها ، بل فى صفحاتها من آراء لسيبويه ، ومن أمثلة منه ، ومن قواعد وأحكام منسوبة إليه .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٨٧ — ٨٨

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٨٩

كتاب سيبويه إذن يغزو كتب النحو التى ألفت بعده ؛ وهذا دليل واضح على مدى تأثيره ، ومبلغ اهتمام العلماء بما جاء فيه .

وهناك طائفة ثالثة من اللغويين وجهت همها إلى تعليل ماتضمنه كتاب سيبويه من آراء وضوابط وأحكام ؛ ولقد طغت هذه الظاهرة على عدد من المؤلفات النحوية التى ظهرت فى الفترة الممتدة من سيبويه حتى عصر الزمخشرى أو بعده بقليل ؛ ولسنا الآن فى حاجة إلى الإفاضة فى ذلك ، لأننا سنتعرض لها بشىء من التفصيل فيما بعد .

هل هناك أثر سلبي لكتاب سيبويه ؟

لكل فعل رد فعل وقد يكون له ردود ، ولكل صوت صدى وقد يكون له أصداء مختلفة ، ومهمة الدارس الحقيقى أن يتلمس ردود الفعل أو أصداءه ثم يرصدها ويحللها ويعمل على تقييمها للتمييز بينها والحكم على كل منها ؛ وسنحاول ذلك مع هذا الكتاب العظيم .

إن الصورة المشرقة الإيجابية التى رسمناها عن هذا الكتاب منذ قليل تبهر نظر القارىء ، وتخلب لبه ، فتجعله يرى الحسن ويخفى عليه القبيح ، يفتح عينيه على الجانب القوى ويغمضها أو تعمى هى أمام الجانب الهزيل .

ولو طبقنا ذلك على كتاب سيبويه لوجدنا أنه — رغم أهميته وجلاله ، ومبلغ تأثيره على طوائف العلماء من حيث العقلية والتصرف فى مجال البحث والإنتاج ، والتمسك به كدستور للدرس النحوى — قد جنى على النحو والنحاة وحرمنا من ثمرة طيبة كنا ننتظرها بشغف من جانب هؤلاء العلماء الذين كرسوا وقتهم وجهدهم الذهنى ونشاطهم العقلى للعمل الجاد المتواصل فى حقل النحو ومباحثه والإنتاج فيه .

كنا ننتظر منهم وقد تطورت اللغة العربية فأخذت مفردات جديدة وتعبيرات لا عهد لها بها من قبل ، وصوراً بيانية لم يألفها العرب قبل أن يمتزجوا بهذا الخليط العجيب من الأجناس البشرية ، ويتصلوا بهذه الثقافات الأجنبية المختلفة — أن ينتقلوا بالنحو إلى مرحلة جديدة بحيث يساير

تطور اللغة نفسها وتطور استعمالاتها لأنها بعد أن اندثر من اللغة ألفاظ وتراكيب واستعمالات ومصطلحات يقدم كتاب سيبويه أمثلة متعددة منها ، وبعد أن جد فيها ألفاظ وتراكيب واستعمالات ومصطلحات أخرى لم تكن موجودة من قبل .

كنا ننتظر منهم أن يعفوا النحو مما يتخلله من قواعد وأحكام افتراضية كتلك التى تناولها سيبويه فى باب الاشتغال أو تلك التى وضعها بناء على أمثلة مصطنعة .

كنا ننتظر منهم أن ينظروا فى الصيغ الجديدة التى وجدت فى اللغة وشاع استعمالها وتداولها العرب الخلص فيما يسمونه بعصور الاستشهاد - ومن ذلك كثير فى باب النسب وباب التصغير وصيغ المبالغة — فيحصروها ويقننوها ويضيفوها إلى ما ورثوه عن سيبويه شأن صنيع النحاة الأجانب فى لغاتهم الخاصة .

كنا ننتظر منهم أن يعاودوا النظر فى تقسيم الكلمة فلا يقلدوا فى ذلك سيبويه تقليداً مسرفاً وتبقى هذه القضية فى النحو العربى موضع تقصير ومثار نقاش وخلاف .

كنا ننتظر منهم أن يراجعوا قضية الفعل وصلته بالزمن متحررين من قيود التبعية والتقليد المسرف للأساس الفلسفى الذى انبنى عليه تقسيم الفعل بالنسبة للزمن إلى ماض وحال ومستقبل فيدرسوها بوعى لا من الجانب الفلسفى التجريدى ، الذى تأثر به سيبويه ولكن من واقع اللغة نفسها وواقع استعمالاتها الزمنية المتشابكة ؛ إذ العربية فى مواجهة توقيت الأحداث قد استجابت بدقة وسخاء إلى عدد من الأزمنة لا يكاد يقل عما نجده فى اللغات الأجنبية القديمة والحديثة ؛ غير أن الدرس النحوى هنا سار فى طريق واللغة

باستعمالاتها كانت تسير فى طريق آخر، وهكذا أحدثت فجوة بين مسار الاثنين .

كنا ننتظر منهم ذلك كله وأكثر منه ؛ وكان فى استطاعتهم أن يدركوا هذه الملاحظ ، ويعالجوا تلك القضايا لأن الدرس النحوى كان لا يزال فى زهرة شبابه ، ولأنهم عاصروا بأنفسهم هذه الألوان من التطور اللغوى ، ولأن آثارهم العلمية ، التى وصلت إلينا، تشير بوضوح إلى ما كانوا يتمتعون به من يقظة ذهنية متناهية ، وثقافة لغوية عميقة ، ومهارة نادرة فى تقليب المسائل النحوية على الوجوه المختلفة وتلمس الحلول الممكنة لما يعترضهم من مشاكل وصعاب .

ولكن ما الذى صرفهم عن ذلك وحال بينهم وبين استغلال ملكاتهم ومواهبهم فى نقد المادة وقضاياها، بإضافة ما يساير التطور اللغوى، والاستغناء عما هو مفترض ومصنوع ؟ فى الجواب عن ذلك يكمن ما نبحث عنه ونريد الوصول إليه .

إن عظمة كتاب سيبويه، والهالة التى أحيط بها، والشهرة التى كان يتمتع بها صاحبه فى حياته وبعد مماته هى المسؤولة أولا وأخيراً عن استكانه هؤلاء العلماء وقناعتهم بما خلفه لهم إمام النحو، وتقصيرهم فى عملية النقد والتهذيب والتطوير والإصلاح . وهذا هو رد الفعل السىء الذى أحدثه جلال هذا الكتاب . لقد سمع هؤلاء العلماء كثيراً من التقريظ والثناء على هذا الكتاب ورأوا فيه سجلا حافلا بكل ما يتصل بالثقافة اللغوية فى القرنين الأولين من الهجرة ولمحوا من خلاله صورة صادقة وأمينة لما يراه أئمة اللغة ويشغل فراغ الدراسات النحوية من جوانبها المختلفة . لقد سمعوا عن هذا الكتاب أنه قرآن النحو ، وأنه يشبه البحر فى غزارة مادته، وصعوبة التغلب عليه ، وأنه يجمع بين دفتيه كل مباحث النحو وما يتصل بها ؛ كما سمعوا

كذلك — وربما مارسوا هذا بأنفسهم — ان ما يبذل من جهد ووقت ومال في سبيل الرحلة من بلد إلى آخر رغبة في قراءة كتاب سيبويه على أحد العلماء المتخصصين في إقرانه لا يساوى الثمرة العلمية التى تجنى من وراء ذلك .

سمعوا هذا وأكثر، فوقر فى أذهانهم أن هذا الكتاب قد جمع فأوعى وأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه بلغ فى مباحثه درجة الكمال ؛ ولو أضفنا إلى ذلك ما هو معروف عنا ، معشر الشرقيين ، من الاحترام البالغ للسلف والتقدير العظيم لآثار هذا السلف ؛ نقول: لو أضفنا إلى ما تقدم ما هو معروف عنا من هذا الاحترام ، لاتضح أمامنا موقف أولئك العلماء من سيبويه وكتابه، وما يمكن أن يكون هذا الموقف، قد خلقه من الشعور باليأس من إمكان إضافة جديد إلى هذا العلم الذى أوجده سيبويه ومن الإحساس الراسخ بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذه الفكرة — فيما نعتقد — قد جنت على النحاة بعد سيبويه وحرمت النحو نفسه من الدرس المتطور، والنقد الموضوعى، والمعالجة الجادة، ومحاولة التقريب بينه وبين الاستعمالات اللغوية الجديدة ؛ وكان هذا ممكناً فى ذلك العصر ، عصر الاستشهاد باللغة والاعتراف بسلامتها ونقاء مصدرها وصحة ما يقال بها شعراً ونثراً .

ومن أجل ذلك انصرف هؤلاء العلماء إلى فهم المادة النحوية وتحصيلها كما جاءت فى كتاب سيبويه ؛ وجل ما أبدوه من تحرر فى درس الكتاب ينحصر فى إبداء بعض الملاحظات التى تتصل بعدد من الآراء ولا تتعدى فى جملتها ناحيه الشكل أو الإطار ؛ أما المضمون بما يشتمل عليه من منهج ومن قضايا أساسية ومن أحكام عامة فقد بقى كما هو دون تغيير يذكر .

واليأس من طبيعته أن يشل التفكير ، ويكبل العقل ، ويقتل فى المرء ملكة الإبداع والقدرة على الحركة والخلق ؛ وهكذا كان يدور العلماء حول كتاب سيبويه وكأنهم يسيرون فى طريق مغلق؛فانكبوا على قراءة الكتاب وتحليل مافيه من أحكام نحوية باحثين عن علل هذه الأحكام ومقتنعين بأن المادة النحوية نفسها بفضل مجهود سيبويه قد اكتملت ثم نضجت واحترقت ولم يبق فيها بعد ذلك زيادة لمستزيد .

وهكذا أُتِى العلماء من مكمن العظمة وعلو المكانة لكتاب سيبويه ؛ وذلك هو عين ما نسميه رد الفعل السيء أو الأثر السلبي لهذا الكتاب .

ولعل أبرز ظاهرة جديدة من ظواهر الدرس النحوى بعد سيبويه هى ظاهرة التعليل للنحو ومبادئه وأحكامه وقضاياه ؛ فقد وجد العلماء فيها متنفسا وترويضا لأذهانهم بعد أن ضُيِّق عليهم أمام المادة النحوية نفسها .

ولو أننا استعرضنا الكتب النحوية المؤلفة فى الفترة التالية لسيبويه حتى عصر الزمخشرى لوجدنا مصداق ذلك بشكل لا يحتاج بعد الاطلاع عليها إلى دليل .

وكانت هذه الظاهرة نتيجه لأمرين :

الأول : انتشار المعارف الفلسفية وغرام الناس بها فى ذلك العصر .

الثانى : اليأس من الإتيان بجديد فى ميدان النحو .

ونخلص من ذلك كله إلى القول بأن كتاب سيبويه أحدث فى عالم اللغويين والمهتمين بأمر النحو أمرين لا سبيل إلى انكارهما أو تجاهلهما :

الأمر الأول إيجابى ، ويتمثل فى استحواذ الكتاب على مجهود النحاة

كما فرضته مادته ثم عكوف العلماء على درس هذه المادة على أنها ثمرة ناضجة وعمل علمي كامل .

الأمر الثاني سلبي، ويتمثل في انصراف هؤلاء العلماء عن درس النحو كما ينبغي أن يكون ـ وفقا لمتطلبات اللغة التي كانت لاتزال تنمو وتثرى وتتطور ـ إلى درسه كما تصوره سيبويه وكما خطط له وفقا لحالة اللغة ومدارك اللغويين في خلال القرن الأول والثاني من الهجرة .

— ٦ —

هل حدث تطور فى الدرس النحوى بعد سيبويه حتى مجىء الزمخشرى ؟

وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلا فما مظهره وما مداه ؟

إن ظاهرة التطور فى الأشياء أمر طبيعى يخضع لناموس عام، بسيطاً كان هذا التطور أم عظيما ، وخضوعاً لهذا المبدأ العام لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل تطور الدرس النحوى بعد سيبويه فى مدرسته التى تكونت حول كتابه وعلى أيدى تلاميذه - بطريق مباشر أو غير مباشر - الذين فتنوا به وبعلمه وتخصصوا فى هذا الميدان .

غير أن هذا التطور - كما يفهم مما ذكرناه أو أشرنا إليه سلفاً - كان ضئيلا محدوداً قليل الجدوى بالنسبة للنحو نفسه ؛ كان تطوراً فى الشكل لا فى الجوهر تطوراً فى نظام التأليف لا فى موضوع التأليف ، تطوراً فى أسلوب معالجة القضايا لا فى القضايا نفسها، مما أتاح الفرصة لأن تعيش مدرسة سيبويه أكثر مما كان ينتظر لهـا ، إذ استمرت من أواخر القرن الثانى إلى أوائل القرن الخامس الهجرى ؛ وهذا كثير بالنسبة لحياة المدارس النحوية فى عهودها الأولى ، عهود النضج اللغوى والتطور اللغوى . والثراء اللغوى تحت رعاية أصحابها وفى جو صفائها وسلامتها ؛ نقول ، إن هذا كثير إذا ما قيست حياة مدرسة سيبويه بحياة غيرها من المدارس الأولى لدى الإغريق وعند اللاتينيين ، حيث يوجد عند هؤلاء وأولئك مدرستان أو ثلاث فى كل قرن من الزمن .

بقيت المادة النحوية ، التى تصورها سيبويه وكونها أو جمعها وفقاً

للاستعمالات اللغوية الصحيحة المستقرة فى عصره وقبل عصره ، كما هى دون تغيير يذكر أو جديد يضاف رغم الإمكانيات المتاحة بالنسبة لمتن اللغـة وصيغها وتعبيراتها وأساليبها ، وبالنسبة للمواهب العقلية المتوفرة لدى النحاة فى الشطر الأكبر من العصور العباسية . لم نجد واحداً من النحاة فى هذه الفترة الطويلة يجرؤ بعقلية متحررة من تلك التبعية المسرفة على أن يفحص هذه المادة ويسبر أغوارها ليكتشف مواطن الاستزادة والثرثرة فيستأصلها ونجوات النقص والاحتياج فيملأ فراغها ؛ نقول ، لم يجرؤ واحد من النحاة فى هذه الفترة على ذلك الصنيع ، بل لم يجرؤ على المخالفة فى الرأى إلا فى أضيق الحدود . ولم يكن ذلك من النحاة عجزاً ولا قلة حيلة ولا إيثاراً للسلامة ، ولكن كان اقتناعاً بأن النحو قطع كل الشوط ، ووصل إلى الغاية ولن يوجد بعد سيبويه من يستطيع السبق فى هذا الميدان فضلا عن مجاراته فيـه . ونتيجة ذلك توزيع مجهود النحاة على مباحث لا تكاد تتصل بجوهر النحو ومشاكله الصعبة وقضاياه الأساسية ، ولكنها تحوم حوله أو تنتزع منه موضوعات شكلية ، ثانوية .

بعض هؤلاء العلماء يتصدر لشرح كتاب سيبويه أو لشرح ما فيه من من شواهد ، كصنيع المبرد وصنيع محمد بن على بن اسماعيل ، المكنى بأبى بكر وقد رأينا منذ قليل مؤلفاتهما فى هذا المجال ؛ ونضيف إليهما الآن أبا الحسن على بن عيسى بن على بن عبد الله النحوى ، الذى ألف بدوره ثلاثة كتب حول كتاب سيبويه هى : كتاب شرح سيبويه ، كتاب أغراض كتاب سيبويه ، كتاب المسائل المفردة من كتاب سيبويه ؛ ثم لم يكتف بهذه الكتب الثلاثة ، ولكنه ألف كتاباً رابعاً يشرح فيـه كتاب المدخل إلى سيبويه ، الذى ألفه المبرد [1] .

---

(١) الفهرست لابن النديم .

وتصدى بعض آخر ، لفصل المباحث الخاصة بالصرف عن تلك التى تتناول النحو ، كصنيع أبى عثمان المازنى المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، فقد كان أول من دون علم التصريف فى بحث مستقل.

وتصدى فريق ثالث، إلى تحليل الأحكام النحوية — أو بعضها — الواردة فى الكتاب ثم التعليق عليها ومحاولة تعليلها تمشياً مع النمط الغالب على المثقفين فى ذلك العصر .

ولم يكد يمضى بعد ظهور كتاب سيبويه نحو مائة سنة فقط حتى ألف المشتغلون بالنحو أكثر من عشرين كتاباً كلها تحوم حول كتاب سيبويه وتعالج مشاكله الشكلية أو موضوعاته الثانوية (١) . أما المادة النحوية نفسها ودرسها على ضوء الاستعمالات اللغوية المعاصرة فلم تظفر بشىء من هـــذه العناية ولا ذلك الاهتمام . كانوا يقتربون منها ويمسونها مساً خفيفاً كمن يحاول إزالة الغبار عن شىء ثمين ولكنهم لا يملكون القدرة على أن يهزوها بعنف ليتساقط منها ما لاغناء فيه ، كما كانوا لا يملكون القدرة على تقييمها تقييماً سليماً غير متأثرين بتلك الهالة العظيمة والرهيبة فى نفس الوقت ، تلك الهالة التى جعلت من سيبويه ومن كتابه ما يشبه المعجزة أو الأمور الخارقة .

إن مجرد نظرة فى عناوين الكتب المؤلفة فى النحو خلال القرن الرابع الهجرى ترينا بوضوح المجال الذى كان يشغل أذهان النحاة فى ذلك العصر ويصرفهم عن جوهره ومضمونه إلى إطاره وأشكاله :

أبو اسحق الزجاج [ت سنة ٣١١ هـ] يؤلف كتاباً بعنوان - سر النحو -

وأبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى [ت سنة ٣٢٨ هـ] يؤلف

---

(١) أول كتاب فى نحو العربية . مجلة آداب الاسكندرية . ديسمبر سنة ١٩[illegible]

ـ الأضداد فى النحو ـ و ـ الإيضاح فى الوقف والابتداء ـ ؛ وأبو القاسم الزجاجى [ت سنة ٣٣٩ هـ] يؤلف ـ الجمل فى النحو ـ ؛ وأبو سعيد السيرافى الشارح لكتاب سيبويه [ت سنة ٣٦٨ هـ] يؤلف ـ ألفات الوصل والقطع ـ وابن خالويه [ت سنة ٣٧٠ هـ] يؤلف كتاباً ليس فى كلام العرب ؛ وأبو بكر محمد بن الحسن الزُّبَيْدى [ت سنة ٣٧٩ هـ] يؤلف كتاب الواضح فى النحو والعربية ؛ وأبو الفتح عثمان بن جنى الفيلسوف اللغوى [ت سنة ٣٩٢ هـ] يؤلف الخصائص فى اللغة ، سر الصناعة ، اللمع فى النحو ، علل التثنية ، المحتسب فى إعراب الشواذ .

أين نجد بين هذه الكتب الكتاب الذى يتناول النحو كموضوع علمى متكامل يعرض قضاياه وينظم أحكامه ويناقش مسائله بعقلية متطورة ونظرة ناقدة ومقاييس جديدة . وتطبيق محكم دقيق ؟

صحيح أنه فى خلال القرن الثالث الهجرى وجد من تصدى للمادة النحوية ككل وتناولها فى شمول وصاغها فى وضوح ورتبها فى منهج يختلف عن منهج سيبويه ، وذلك كالمبرد وصنيعه فى كتابه ـ المقتضب ـ ؛ ومع ذلك ففى كل فصل من فصول المقتضب ، بل فى كل قضية من قضاياه حتى فى أمثلته وشواهده يكاد يحس القارىء تبعيته لسيبويه وتأثره بما جاء فى كتابه .

غير أن ذلك كله لم يمنع الدرس النحوى من أن يحظى بنقلة جديدة وبتغييرات عديدة تتصل بالشكل أكثر من اتصالها بالمادة أو المضمون ، يمكن أن نعتبرها مظاهر للتطور فى الدرس النحوى .

ولكى تتضح عملية رصد هذه المظاهر التطورية وتلك النقلة الجديدة فى الدرس النحوى نقول : إن مجهود النحاة بعد سيبويه يتمثل فى اتجاهين : الأول: ينصب على المادة النحوية نفسها ؛ والثانى: يتجه إلى موضوعات تخدم

من قريب أو بعيد هذه المـــادة النحوية ويلق ضوءاً على ما أجمل فيها وما استغلق منها .

بالنسبة للمادة النحوية كان عدد من اتجه إليها من العلماء محدوداً جداً للأسباب السالفة وتتمثل نقلتها ومظاهر التطور فيها فى طريقة جمعها وتصنيفها وأسلوب عرضها .

أما بالنسبة للموضوعات التى تخدم المادة النحوية فتتمثل فى تلك المجالات العديدة التى انفتحت أمام اللغويين فتناولوها بعناية ويقظة ودرسوها بحرص واهتمام وعالجوها بمهارة وذكاء وألفوا فيها كتباً قيمة عديدة لا نظير لها فى ثقافة أية لغة من اللغات الأخرى ؛ بعضها تكفل ببيان ما استغرب وشرح ماغمض ؛ وبعضها تكفل بخواص النحو وأسراره وتعليل قواعده وأحكامه وبعضها تكفل بتطبيق الأحكام النحوية متمثلة فى إعراب القرآن .

ولعل خير من يمثل هذين الاتجاهين هما المبرد وابن جنى ؛ المبرد بالنسبة للمادة النحوية ، وابن جنى بالنسبة للمجالات التى تخدم هذه المادة وتحوم حولها .

ويبدو أن هذين الاتجاهين كانا فى ذلك الوقت يصوران بشكل عام المجهود العقلى لجميع العلماء مهما اختلفت ميادين عملهم ؛ كما كان المثقفون هناك يصنفون العلماء وفقاً لهذين الاتجاهين ؛ فكانوا يطلقون على فريق منهم — أهل علم — ويريدون بذلك أهل إحاطة وإلمام بالمسائل العلمية ؛ ويطلقون على الفريق الآخر — أهل نظر — ويريدون بذلك أهل فهم وإدراك للمسائل العلمية بواسطة التعليل العقلى المنطق .

كان الفرق واضحاً وكبيراً بين الاتجاهين فى النشاط والإنتاج ؛ فبينما يلتزم الاتجاه الأول بالانطواء على نفسه والاكتفاء بالحركة داخل شرنقته

نرى أن الاتجاه الثانى قد استطاع أن يتخلص من قيود التبعية ويطلق العنان للمواهب والملكات العقلية ويساير التقدم الثقافى مساهما فى تعميقه وتوسيعه وإثرائه ؛ وبينما يصور الاتجاه الأول الانزواء والتبعية والتقليد ، يصور الاتجاه الثانى النمو والحرية والانطلاق ؛ وبينما يقتصر إنتاج الاتجاه الأول على تراث سيبويه وتراث أساتذته لا يكاد يخرج عن ذلك إلا فى تصنيف القضايا وأسلوب معالجتها وإبداء الرأى فى أحكامها نجد الاتجاه الثانى قد أثرى اللغة ومباحثها فى المجالات العديدة التى انفتحت أمام العلماء لتكون موضعاً للتنافس بينهم ؛ وأهم هذه المجالات وأبرزها هى مجال النحو ومجال الصرف ومجال الصوتيات ، بحيث شمل هذا الانتاج الجانب التحليلى لاستخراج القوانين العامة والجانب التركيبى لتصنيف هذه القوانين وتطبيقها على المادة اللغوية والنحوية والصرفية والصوتية بصورة لا تكاد تقارن بغيرها ، وبدقة ومهارة فائقتين .

ذكرنا منذ قليل أن المبرد يصور اتجاه أهل العلم ونضيف هنا أن كتابه الذى يخدم قضيتنا فى هذا البحث ويلقى فى نفس الوقت ضوءاً على ما نقرره بصدد تطور الدرس النحوى هو — المقتضب — .

من اليسير جداً على قارىء هذا الكتاب أن يلاحظ أن مؤلفه قد تقيد إلى درجة كبيرة بما جاء فى كتاب سيبويه من مادة لغوية ، ومن أحكام وآراء تتصل بهذه المادة ، ومن أمثلة وشواهد من نصوص اللغة استعملها سيبويه للتطبيق والاستدلال ؛ كما أنه من اليسير جداً عليه أن يدرك طائفة من الفروق بين الكتابين توضح — مع بساطتها — إلى حد ما ، ما يمكن أن يكون قد جد على الدرس النحوى بعد سيبويه نتيجة للظروف الزمنية والثقافية والعقلية .

تتمثل هذه الفروق بإيجاز فيما يلي :

١ — قارىء المقتضب يلاحظ ببساطة أن المبرد يهتم جداً بتصنيف المعانى الماثلة فى ذهن المتكلم وتصوراته واضعاً الصيغ اللغوية المعبرة عن هذه المعانى فى الدرجة الثانية ؛ فى حين أن سيبويه فى كتابه يهتم جداً بتصنيف القوالب اللغوية المشتركة فى الظواهر النحوية والخصائص التركيبية تاركا أمر المعنى وأمر الحكم النحوى فى أغلب الأحيان إلى عملية الاستنباط والاستنتاج ؛ كثيراً مانقرأ فى كتاب المبرد هذه العبارة : « اعلم أنك إذا أردت كذا كان الأمر كذا » أو عبارات أخرى بنفس المعنى ؛ أما سيبويه فيقدم لمادته فى كثير من الأحيان بهذه العبارة : « تقول العرب كذا أو يقول الله عز وجل كذا » ويمضى فى ذكر النصوص اللغوية المشتركة فى خاصة لغوية أو ظاهرة نحوية .

٢ — القارىء للمقتضب يحس إحساساً قوياً بمحاولة جادة ومجهود مبذول من جانب المبرد لأجل استخلاص القاعدة النحوية والتركيز عليها وإبراز كيانها بعد إزالة كل ما يحجبها من أغلفة وأستار فى ثنايا المادة اللغوية التى كانت تغرقها وتمسك بتلابيبها لدى سيبويه .

٣ — يدرك القارىء للمقتضب أيضاً ظهور بواكير المصطلحات النحوية المصقولة والصياغات العلمية المتطورة التى احتلت مكان المصطلحات الفجة والتعبيرات البدائية وطريقة اللف والدوران حول شرح الفكرة وتوضيح الملاحظة وبيان المقصود فى كتاب سيبويه .

٤ — يجد القارىء للمقتضب بوادر جديدة لم يكن لها وجود صريح أو مقصود عند سيبويه ؛ تلك هى بوادر التفصيل والتشقيق والتفريع فى المسائل النحوية ثم محاولة تجميع هذه المسائل فى طوائف متشابهة يجمع بينها موضوعاً وتأليفاً خيط واحد فيقضى على ظاهرة الاستطراد المعهودة والمألوفة عند سيبويه ؛ كما يجد القارىء أيضاً أن المبرد يتجه دون التواء إلى الحديث عن الملاحظ أو القواعد النحوية بدلا من توجيهه إلى النصوص اللغوية نفسها

وإلى ما تشتمل عليه من خصائص وأسرار ، وهنا يزداد إحساس القارىء بأنه يدرس قاعدة أو حكما نحوياً يكاد يكون مجرداً عن المادة اللغوية ؛ وقد استلزم ذلك وجود نوع من التعليل لهذه الأحكام يظهر فيه أثر العقل وأثر المجهود الذهنى ؛ كثيراً ما يصرح المبرد بكلمة — والاحتجاج لذلك — ، فى حين أن المعهود لدى سيبويه، حينما تواتيه فرصة التعليل وبيان الأسباب ، أن يعتمد أساساً على كثرة الاستعمال اللغوى وذكر المأثور منه أو على شهرة لهجة دون أخرى أو التثبت من رواية على حساب غيرها .

هذا وفى التحقيق العلمى الجاد ، الذى قام به الأستاذ عضيمة ، أحد علماء الأزهر ، لكتاب المقتضب دليـــل واضح — رغم هذه الفروق الشكلية — على مدى تبعية المبرد لسيبويه فى المادة النحوية وما تشتمله من قضايا وأحكام ؛ إذ حرص المحقق — وقد نجح فيما حرص عليه — على أن يرد أغلب المسائل النحوية فى المقتضب إلى أصولها فى كتاب سيبويه حتى بدت كأنها منقولة منه نصاً ؛ فضلا عما ورد فيها من أمثلة وشواهد لغوية .

أما ابن جنى . وهو الممثل لأهل النظر أو لأصحاب الاتجاه الثانى ، فيذهب فى درس الأصول النحوية وتعليل الظواهر اللغوية وعمل العقل فيها إلى درجة بعيدة ؛ كما يذهب إلى استخلاص القوانين العامة للنحو واللغة متجاوزاً الحدود التى رسمها القدماء بمسافات شاسعة ؛ فهو بحق صاحب مدرسة فى فلسفة النحو واللغة ؛ وقد ساعده على ذلك ثقافة واسعة ، وذهن يقظ ، ونظرة لماحة ، وقوة إدراك فريدة ، ومقدرة نادرة عل التحليل والتركيب وعلى تقليب المسألة على وجوهها المختلفة لكى تتضح له المقدمات وتسلم له النتائج ؛ ونكاد نجزم بأن الثقافة اللغوية عندنا لم تظفر بمثله بعد أن أثراها بآرائه وأفكاره ومباحثه . وأثر ذلك واضح فى مؤلفاته العديدة . وبصفة خاصة فى الخصائص ، وسر صناعة الإعراب . حيث يطغى التعليل العقلى على

المادة ، وحيث لا يحس القارىء بالظاهرة اللغوية أو النحوية أو الصرفية أو الصوتية بمقدار إحساسه بتعليل الظاهرة نفسها .

ومن هذا يتضح الفرق بين من هو من أهل العلم ومن هو من أهل النظر ؛ كما يتضح موقف الاثنين معاً من القضية التى طرحناها للمعالجة : تطور الدرس النحوى بعد سيبويه .

من هو أهل العلم يعرض للموضوع فيحصله ، ويلم بمادته . ويصفه ، وقد يدخل تغييراً على تنظيمه وتبويبه وتأليفه ؛ ولكنه لايتجاوز هذه الآفاق إلى درجة استبطانه والغوص فيه والبحث فى أحشائه وإجراء عمليات تشريحية تعزل الأعضاء المريضة عن الأعضاء الصحيحة أو تجرى عمليات ترقيع لما يمكن أن يصلح منها للبقاء ؛ وقد يكون من همه أيضاً التفسير والبيان والتعليل .

أما من هو من أهل النظر فيعرض للموضوع باحثاً فيه ومنقباً عن أجزائه. بل عن جزئياته ؛ فيحلل ذلك كله ويفرغ عليه شحنة من عقله البصير وذهنه الناقد ثم يسلط على هذا الموضوع أو على بعض أجزائه أشعة كاشفة وحارقة فى نفس الوقت لتعمل عملها فيه من الكشف والصهر والاصلاح .

ونخلص مما تقدم إلى القول فى عبارة موجزة بأن تطور الدرس النحوى فيما يتصل بالقواعد والمبادىء والقضايا والأحكام لم يكن سوى أثر طفيف يمس أكثر ما يمس تصنيف القضايا وأسلوب معالجتها .

وأما المباحث الأخرى المتصلة بالمادة النحوية والتى تخدمها وتدعمها وتثريها فقد ظفرت بمجهودات عظيمة وطاقات ذهنية خلاقة : فتعددت مجالاتها واتسعت ميادينها وتشعبت مسائلها وتفلسفت أفكارها وبرزت شخصياتها ومعالمها بصورة فريدة وصارت على درجة تكاد تكون مذهلة من التقدم والتطور سعة وعمقاً .

بقيت مسألة أخيرة فى هذا الفصل نعتقد أنها ضرورية وملحة بعد الحديث بشىء من التفصيل عن تطور الدرس النحوى اثر سيبويه والإشارة إلى بعض مظاهر هذا التطور ؛ هذه المسألة تعنى ظاهرة التعليل فى الدرس النحوى وفى المباحث النحوية ، التى يمكن اعتبارها من أهم مظاهر التطور إن لم تكن أهمها على الإطلاق، حيث استطاعت بما لها من إغراء أن تستحوذ على عقلية النحاة وتستنفد الكثير من طاقاتهم وتتغلغل فى المسائل النحوية كلية كانت أم جزئية وتصير تلقائيا النمط المميز والطابع العام لثقافة العصر واتجاهه وإنتاجه . وفوق ذلك فإن الحديث عنها يكشف إلى حد كبير مدى ماظفر به الدرس النحوى من تغيير وتطوير :

البحث عن السبب أو العلة ظاهرة طبيعية فى كل مجتمع يبحث ويفكر ؛ وهى فى أول أمرها لاتحتاج إلى تنشئة ولا إلى معاناة التمرس ، وإنما يلجأ إليها المفكرون نتيجة الاهتمام بالحقائق العلمية والتفكير فيها ، ولقد وجدت ظاهرة التعليل لدى اللغويين فى القرن الأول والثانى من الهجرة وعرفنا صورا منها فى مجالس العلماء وفى حلقات الدراسة وفى المناقشات اللغوية التى كانت تدور فى المساجد أو المربد أو بيوت العلماء ؛ ولعل أوضح ظهور لها كان عقب الإصلاح اللغوى الذى قام به أبو الأسود الدؤلى ؛ فلا يتصور أن يوضع هذا الإصلاح دون أن يثير كثيرا من التساؤلات ثم التفكير فى الإجابة عنها مع ذكر الأسباب والمبررات .

صحيح أن ذلك كان بصورة فطرية ساذجة ولكنه تعليل على كل حال ؛ وكتاب سيبويه يقدم لنا صورا من ذلك ، ثم ما كان هناك من خلاف فى الرأى بين البصريين والكوفيين يذكى هذه الظاهرة ويكسبها شيئا من الدعم لها والحرص عليها .

تستمر ظاهرة التعليل فى نمو مطرد حتى تأخذ لها حيزا ملحوظا لدى بعض اللغويين السابقين على سيبويه ؛ فها هو ذا عبد الله ابن اسحاق الحضرمى [ت سنة ١١٧ هـ] الذى يقول عنه الزبيدى فى كتابه

طبقات النحويين واللغويين : « وهو — أبو اسحاق الحضرمى — أول من من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل ... » . وها هو ذا الخليل بن أحمد [ت سنة ١٧٥ هـ] الذى يقول عنه الزبيدى أيضا : «وكان الخليل ذكيا فطنا شاعرا واستنبط من العروض وعلل النحو مالم يستنبط أحد» وهاهو يعقوب ابن اسحق الحضرمى [ت سنة ٢٠٥ هـ] الذى يقول عنه الزبيدى كذلك : « قال أبو حاتم : وكان — يعقوب — أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف فى القرآن وتعليله ومذاهبه ومذاهب النحو فى القرآن » .

ولا ينبغى أن نفهم من التنصيص على هؤلاء العلماء وحدهم أن غيرهم لم يسلك هذا السبيل أو لم يمارس هذا النشاط بصورة أو بأخرى فيما يتعرض له من ظواهر نحوية أو لغوية يغمض جانب منها أو تدعو إلى الكشف عن أصلها وتعليل ماجاء بشأنها حتى يمكن — إن دعت الحاجة — الوصول إلى استخلاص القوانين العامة الخاصة بها والمتحكمة فيها .

إن أمر البحث فى الأسباب والعلل والجرى وراءها والكشف عنها قد ازداد بشكل ملحوظ فى القرن الثالث والرابع والخامس من الهجرة ؛ وكان ذلك لسببين أشرنا سلفا إليهما : يأس العلماء بعد سيبويه من الوصول إلى جديد فى موضوع النحو ؛ واتساع نطاق الدراسة المنطقية والمباحث الفلسفية ومحاولة المثقفين أن يظهروا بمظهر العارفين بالفلسفة الاغريقية وتطبيق حدودها وقوانينها على معارفهم ، كل فى ميدان تخصصه : المتكلمون، والفقهاء واللغويون .

إن انفتاح هذا الباب أمام النحاة جعلهم يعكفون على ماهو بين أيديهم من ظواهر لغوية ، وأحكام نحوية ، وقوانين تعبيرية يعللونها ويتلمسون لها مختلف الأسباب فى وجودها .

وهكذا أحلت الدراسة التعليلية فى النحو محـــل الدراسة الموضوعية

الوصفية ؛ وغزت المصطلحات المنطقية والفلسفية ميدان النحو ، وتحولت مباحثه إلى ما يشبه القضايا التجريدية حتى كادت المادة اللغوية والنحوية تختنق فى غمرة هذه التعليلات والمناقشات والخلافات والتجريدات .

لم تخف هذه الحقيقة على العلماء فى هذه الفترة الزمنية، فهاهو ذا ابن جنى فى كتابه الخصائص يصرح بأن النحاة فى تعليلاتهم سلكوا مسلك الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ؛ كما يصرح كذلك بأن علل النحو مأخوذة من أصول الفقه ومن علم الكلام ومن قضايا المنطق ؛ وها هو ذا أبو حيان التوحيدى يقرر فى مقايساته ما يفيد امتزاج النحو بالمنطق بدرجة تظهر غلبة المنطق عليه ؛ يقول : « النحو منطق عربى والمنطق نحو عقلى ، وجل نظر المنطق فى المعانى وإن كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التى هى لها كالحلل والمعارض ... فالنحو يدخل المنطق ولكن مرتبا له والمنطق يدخل النحو ولكن محققا له ، وما يستعار للنحو من المنطق حتى يتقوم أكثر مما يستعار من النحو للمنطق حتى يصح ويستحكم » .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئا آخر إلى ما ذكرناه بصدد هذه القضية لكى تتضح الصورة فإننا نؤثر ذكر مسألة نحوية عالجها كل من سيبويه وابن الطراوة تظهر موقف كل ومنهجه فى البحث ؛ كما تظهر مدى تغلغل المباحث الفلسفية فى الميدان اللغوى بعد سيبويه :

يقول سيبويه فى حديثه عن التركيب اللغوى من حيث دلالته : هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة ؛ فمنه مستقيم حسن ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب . فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس وسآتيك غدا وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول : أتيتك غدا وسآتيك أمس وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه ؛ وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ فى غير موضعه نحو قولك :

زيداً رأيت وكى زيدٌ يأتيك وأشباه هذا ؛ وأما المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس .

ويقول ابن الطراوة فى حديثه عن تقسيم الألفاظ من حيث مدلولها الفردى ومدلولها التركيبى « تنقسم الألفاظ إلى واجب ، وممتنع ، وجائز ؛ فالواجب رجل وقائم ونحوهما مما يجب أن يكون فى الوجود ولا ينفك الوجود عنه ؛ والممتنع لاقائم ولارجل إذ يمتنع أن يخلو الوجود من أن يكون لارجل فيه ولا قائم ؛ والجائز زيد وعمرو لأنه جائز أن يكون ولا يكون ؛ قال : فكلام مركب من واجبين لايجوز نحو رجل قائم لأنه لافائدة فيه ، وكلام مركب من ممتنعين أيضا لايجوز نحو رجل لاقائم لأنه كذب ولا فائدة فيه ؛ وكلام مركب من واجب وجائز صحيح نحو زيد قائم ؛ وكلام مركب من ممتنع وجائز لا يجوز ولا من جائز وممتنع نحو : زيد لا قائم ورجل لاقائم لأنه كذب ، إذ معناه لا قائم فى الوجود ؛ وكلام مركب من جائزين لايجوز نحو : زيد أخوك لأنه معلوم لكن بتأخيره صار واجبا فصح الإخبار به لأنه مجهول فى حق المخاطب فالجائز يصير بتأخيره واجبا ؛ ولو قلت زيد قائم صح لأنه مركب من جائز وواجب فلو قدمت وقلت قائم زيد لم يجز لأن — زيد — صار بتأخيره واجبا فصار الكلام مركبا من واجبين فصار بمنزلة قائم رجل » .

أليس هذا التقسيم الأخير شبيها بتقسيم الأشياء إلى واجب ، وممكن ومستحيل ؟ ألا يبدو فيه أثر المنطق وطبيعة العقلية الفلسفية ؟

إننا نرى فى تقسيم سيبويه ملامح الفطرة ومظاهر البساطة والمنطق اللغوى الواقعى ؛ ونرى فى تقسيم ابن الطراوة سمات التعقيد وعلامات التجريد والتمسك بنظرية الوجود الفلسفية .

هذا لون من ألوان التطور فى الدرس النحوى بعد سيبويه ومنه نستطيع

أن نتصور ما يمكن أن يكون عليه هذا التطور بالنسبة للمشاكل النحوية المتصلة بالإطار الخارجي وبالنسبة للمعارف المتصلة ببعض المسائل الجزئية التى كان ينظر إليها فى عهد سيبويه وأساتذته على أنها أمور ليست أساسية فى النحو كمسألة الأصوات فى اللغة ؛ تلك المسألة التى لم تشغل من مجهود الخليل وسيبويه إلا قدرا متواضعا ، أخذت تتأصل وتتشعب وتتضخم مع الزمن حتى أصبحت فى عصر ابن جنى وأستاذه أبى على الفارسى أصلا من الأصول العلمية لاينبغى أن يدرس ويعرف لذاته فقط ، وإنما ليخدم العلوم اللغوية بشكل عام ؛ ولو أننا جمعنا ما قيل فى الأصوات أيام الخليل وسيبويه وما قيل فيها أيام ابن جنى وفى مؤلفاته من حيث تأصيلها وتفريعها وتقنينها ؛ نقول ، لوأننا جمعنا هذا وذاك لما وجدنا أساسا للمقارنة .

وكذلك مسألة إعراب القرآن كظاهرة للتطبيق بين نص لغوى صحيح متواتر وقواعد النحو كما جمعها ورسمها سيبويه ؛ هذه المسألة التى كان يعرض لها سيبويه فى كتابه فى حدود ضيقة جدا : بمناسبة تثبيت ظاهرة لغوية أو تأصيل حكم نحوى ؛ نقول ، هذه المسألة أصبحت منذ القرن الثالث الهجرى ، أى بعد ما لا يزيد عن ثلاثين عاما فقط بعد وفاة سيبويه موضوعاً مستقلا يجتذب إليه مجهود العلماء وتؤلف فيه المؤلفات، فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد من المؤلفين فى اعراب القرآن: أبا مروان عبد الملك ابن حبيب بن سليمان المالكى القرطبى [ت سنة ٢٣٩ هـ] ؛ ونجد الامام أباحاتم سهل بن محمد السجستانى [ت سنة ٢٤٨ هـ] ؛ وهناك أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بثعلب النحوى [ت سنة ٢٩١ هـ] ؛ وأبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوى [ت سنة ٢٨٦ هـ] ؛

وفى خلال القرن الرابع الهجرى يوجد ابواسحق الزجاج [ت سنة ٣١١ هـ]

والشيخ أبو البركات عبد الرحمن بن أبى سعيد محمـــد الأنبارى النحوى [ت سنة ٣٢٨ هـ] ، وأبو جعفر النحاس النحوى [ت سنة ٣٣٨ هـ] ، وأبو عبد الله حسين بن أحمـد المعروف بابن خالويه النحوى [ت سنة ٣٧٠ هـ] ؛ ثم يمضى الزمن ويتضاعف المجهود وتصبح الفروع أصولا والجزئيات كليات ؛ ولـكن الهيكل العام للمادة النحوية يبقى تقريبا كما ارتضاه سيبويه لا يعتريه تغيير إلا فى حدود ضيقة ولا يناله من التطوير إلا فى أضيق الحدود .

الباب الثالث

تطور الدرس النحوى فى عصر الزمخشرى

العصر الذهبي للدراسات اللغوية

— ١ —

من الحقائق الثابتة أن الفترة الزمنية الممتدة من سيبويه إلى الزمخشري تعتبر العصر الذهبي للدراسات اللغوية ؛ فقد ثبتت أصولها وتشعبت مجالاتها حتى شملت تقريباً كل شيء يتصل بالكلمة اللغوية : أصلها ، معناها ، أصواتها ، بنيتها ، شكلها ، دلالتها . استعمالها مفردة ومركبة . ولم يكن ذلك عن طريق اللمحة السريعة . ولا الإشارة الخاطفة ، ولا العبارة الموجزة كما كان شأن هـــذه المعارف لدى سيبويه ؛ وإنما كان عن طريق التخصص والتوسع والإنتاج الغزير مما جعل ثراء المباحث اللغوية فى هذه الفترة بالنسبة للعربية لايقارن بما صنع حول أية لغة أخرى ؛ وإن ما وصل إلينا من هذا التراث اللغوى ـ رغم الكوارث التى لحقت به والدمار الذى أصابه من وراء الأطماع السياسية والحروب الوحشية التى قام بها التتار والصليبيون ـ لا يزال يصور ثروة علمية نادرة وإنتاجاً لغوياً نادراً ؛ ومن المؤسف أننا لم نستطع بعد ، أن نجمعه كله بعد بعثرته فى مكتبات العالم كما لم نستطع أن ندرس ما هو موجود منه عندنا إلا سطحياً وفى أضيق الحدود .

وكثيراً ماكان يتردد مضمون هذه العبارة على ألسنة الأساتذة فى السوربون وفى غيرها من الجامعات الفرنسية : « لم تخدم أية لغة على ظهر الأرض بمثل ماخدمت به اللغة العربية فى العصور القديمة والوسطى » .

ولقد ساعد على ذلك ـ من غير شك ـ حشـد هائل من العلماء المنتمين إلى أجناس متباينة من ثقافات مختلفة حيث كرسوا بشكل منسق كل مجهودهم العقلى ونشاطهم الذهنى ، بل كرسوا كل حياتهم من أجل خدمة هذه اللغة .

كل هذا كان نتيجة لتغيير شامل ظفرت به الحياة الاجتماعية فى هذه

الفترة سياسياً ، واقتصاديا ، وثقافيا ؛ ولهذا سميت هذه الفترة بحق فترة الموسوعات ، كما سميت الفترة التى تلتها فترة الشروح والتعليقات . كانت تلك الفترة فترة خصوبه وازدهار حيث برزت فيها سمات التعمق فى المباحث والتغلغل فى التحليل، والصدق فى الاستنتاج ، كما برزت فيها أيضا وبشكل ملموس واضح ملكات الخلق والابداع .

غير أن أضواء هذه الفترة لم تسلط على هيكل النحو كما سلطت على المباحث اللغوية الأخرى التى تخدمه وتدعمه وتشد من أزره ؛ فبقى تقريبا على عهدنا به لدى سيبويه حتى جاء الزمخشرى فتمرد عليه وجدد فيه وأعمل فى مباحثه مايشبه عملية الهدم والبناء .

كان الزمخشرى فريداً فى اتجاهه هـذا من بين معاصريه الذين كانوا يحترمون القديم ويتمسكون به ويحرصون على الحفـاظ عليه . ومن أجل ذلك ساغ لنا أن نقول إن الزمخشرى صاحب مدرسة نحوية جديدة ، وأن هذه المدرسة كانت بالغة التأثير فى الدرس النحوى ، بل إنها استطاعت أن تحل محل مدرسة سيبويه فى الأوساط العلمية ؛ ومن أجل ذلك أيضا ساغ لنا أن نعدل من تسمية المدارس النحوية بأسماء أماكنها إلى تسميتها بأسماء أصحابها وأئمتها .

ماذا صنع الزمخشري في

- ٢ -

الدرس النحوي

والآن ماذا جد على الدرس النحوى أيام الزمخشرى وعلى يديه ؟

لم يكن من السهل على النحو ، وأمور المجتمع فى تغيير وتطور ، أن يقبع فى الدائرة التى رسمها له سيبويه ، ولا أن يسير فى نفس الطريق الذى رسمه له علماء النحو خلال ما يزيد على قرنين من الزمن مع ما حظى به المجتمع من تغيير ثقافى عميق ومع ما توالى عليه من أربعة أو خمسة أجيال متعاقبة حيث اتسعت دائرة المعارف بصورة لا مثيل لها من قبل ، وحيث نمت الرغبه فى تنظيم وتصنيف هذه المعارف .

أهم ما امتاز به هذا العصر ، إنشاء المدارس ، واتباع نظم منهجية فى التدريس تنهض أساسا على استخلاص المادة العلمية فى إيجاز ووضوح ، ثم على حسن تصنيفها وجمال عرضها ؛ وكان على رأس هذه المدارس ، المدرسة النظامية فى بغداد ، التى أسسها نظام الملك الفارسى ، وزير ملك شاه السلجوقى التركى .

وجد الزمخشرى فى قلب العصر العباسى الرابع (سنة ٤٤٧ هـ — سنة ٦٥٦ هـ) ، حيث ولد فى سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٣٨ هـ ؛ وكان من خير من يمثل روح العصر وعقليته وثقافته ؛ يضاف إلى ذلك ما اكتسبه من التحرر العقلى نتيجة انضمامه إلى المذهب الاعتزالى ، ذلك المذهب الذى يشبه إلى حد كبير ما هو معروف فى العصر الحديث عن أصحاب الأفكار الحرة .

جاء الزمخشرى الممثل لروح عصره وثقافة مجتمعه وأمر النحو كما رأينا :

قناعة ورضا عن كتاب سيبويه ، ثم لف ودوران حوله : شروح، تعليقات، استدراكات ، تعليلات ، خلافات جزئية أغلبها فى أمور شكلية، ثم مؤلفات فى التطبيق على قواعد الإعراب ، وبعض محاولات فى نظم القواعد النحوية نقول ، جاء الزمخشرى وأمر النحو على هذه الصورة فلم يرض عن هذا الوضع وأراد — فيما يبدو — أن يهيىء الدرس النحوى للطلاب استجابة لمتطلبات العصر ووفقاً للظروف العلمية والإمكانيات العقلية لدى المهتمين بشئون النحو ولدى الراغبين فى دراساته .

ولعل أهم ما جد على النحو بفضل الزمخشرى هو مواجهة أحكامه وقضاياه بعقلية مستقلة وتصور متحرر ، ثم مواجهة تخطيطه ومنهجه بحركة ثورية وبناء جديد .

يبدو أن الزمخشرى بحكم انغماسه فى الدرس اللغوى وتعمقه فى جزئياته وتفاصيله ومعايشته له فى المجال الذهنى وفى المجال الاجتماعى ، وبحكم ثقافته الاعتزالية وميله إلى الانطلاق الفكرى وعدم التقيد بصنيع السابقين مهما كانت درجة احترامه لهم ، نقول : يبدو أن الزمخشرى بحكم ذلك كله قد أحس إحساساً قوياً بأن النحو كعلم — يدرس لذاته أولا ، ولتقويم اللسان ثانياً . ولفهم النص اللغوى ثالثاً ، وللتوفيق بين أحكامه ونصوص اللغة التى يعالجها رابعاً — متخلف وفى حاجة إلى مسايرة اللغة وإلى تخطيط جديد ؛ وهذا هو ماصنعه بجرأة لانظير لها بين من سبقوه ومن عاصروه .

ولقد ساعده على ذلك ما كان يجده فى البيئة العلمية من إقبال وتقبل وما يجده كذلك فى ولاة الأمر من استحسان وتشجيع ؛ ولم يكن كثيراً عليه بعد ذلك أن يصبح امام النحو فى عصره ، وأن يستحق منا الآن أن يلقب بسيبويه القرن السادس الهجرى ، وأن يكون صاحب مدرسة نحوية جديدة متطورة .

لم يعالج الزمخشري جزئيات النحو على أنها موضوعات مستقلة كما كان يصنع من سبقه ، كما لم يكن يعالج بعض الظواهر اللغوية التى تخدم المادة النحوية من قريب أو بعيد كقضية الأصوات وقضية العامل وقضية العمل ، ولكنه اتجه أساساً الى موضوع النحو ومادته ومنهجه يُعمل فى ذلك عقله ويبتدع لذلك خطة بسيطة وشاملة فى نفس الوقت ، ثم يُظهر شخصيته وتحرره فى مواجهة بعض المسائل الجزئية أثناء التنفيذ والتطبيق ؛ وذلك هو شأن العلماء المتخصصين الأصلاء ، الذين يسهمون فى بناء الثقافة ويضيفون اليها الجديد من أعمالهم ؛ أما الاعتماد على النقل والسرد والتعليل والشرح والتعليق والمناقشة فذلك شأن الطلاب والأتباع والمقلدين .

وتعالوا بنا الآن نرى فى ايجاز ماذا صنع الزمخشري فى النحو وماذا أصاب النحو من تطوير على يديه :

رأى الزمخشري أن أهم قضية فى النحو تفى بمتطلبات من يريدون الإلمام السريع بالمادة النحوية هى قضية اللفظ المفرد ، والتركيب اللغوى فعالج هذه القضية مستقلة فى مؤلف صغير أسماه - المفرد والمؤلف - حيث يتحدث عن أحوال اللفظ المفرد وأحوال التركيب اللغوى وعن أحكامهما النحوية دون أن يغرق القارىء فى الاستطرادات والاستشهادات والتعليلات ويمكن أن نعتبر هذا بمثابة مقدمة للدرس النحوى المفصل ؛ ولعل هذه الفكرة كانت تراوده وتدور بخلده ، فكرة عمل مقدمة للبحث النحوى .

ثم رأى أن النحو فى المؤلفات النحوية السابقة وعلى رأسها كتاب سيبويه مضطرب فى منهجه ، وفى أبوابه ، وفى أحكامه ، حيث يظهر فيه الخلط والتكرار والاستطراد ، ويغلب عليه عدم الوضوح وعدم الاستقرار فرأى أن يخلص الدرس النحوى من كل ذلك ويجعله نصاً فى مادته سهلا

فى تناوله ، واضحاً فى سيره ، مستقيماً فى منهجه ، فألف لذلك كتابه المفصل حيث جمع المادة النحوية على نسق لم يسبق اليه .

حصر الزمخشرى مادة النحو فى أربعة أقسام رئيسية : الأسماء والأفعال والحروف والمشترك حيث عالج كل قسم على حدة واضعا فى اعتباره كل الأحكام النحوية والصرفية المتصلة بكل من هذه الأقسام : وألف لذلك كتابه - المفصل - ؛ دون أن يكون فى ذلك متأثراً بنظرية العامل ولا بنظرية المعمول ولا بالفصل بين قضايا النحو وقضايا الصرف ؛ هذه النظريات التى أربكت النحاة قبله وسببت لهم الكثير من الخلط والاضطراب .

لقد حسم الزمخشرى الموقف ولم يدخل فى اعتباره أية واحدة من هذه النظريات الثلاثة فسلم له ماأراده للنحو . النحو فى نظره كل الأحكام المتصلة بالكلمة من حيث بنيتها وشكلها ووظيفتها فى التركيب اللغوى ؛ وعلى هذا وضع المنهج وفصل عليه كل الأحكام وألف كتابه - المفصل - . وهذه من غير شك جرأة بارعة وعمل أصيل .

ولكى يزداد عمل الزمخشرى فى ميدان النحو وضوحا نعود قليلا إلى الوراء لنستعرض أهم المؤلفات النحوية بعد سيبويه ونرى حالة الاضطراب المنهجى التى كانت تسيطر على النحاة وتعوقهم فى سير التأليف ثم نقارن بينها وبين - المفصل - لكى تبرز شخصية الزمخشرى وتتبين خطوته الجريئة فى فهمه لموضوع النحو ومهمته وتصنيفه وصياغته .

وربما كان من المستحسن أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المؤلفات النحوية وموقف أصحابها من المنهج النحوى ؛ غير أن المنهج الذى أخذنا به أنفسنا فى هذه العجالة يحول بيننا وبين ذلك ؛ وعلى من يريد الاستفادة حقا من هذا الموضوع الرجوع بنفسه إلى هذه المؤلفات يقرأها

على ضوء ما سنذكره عنها بعد قليل ، أو الرجوع ـ على الأقل ـ إلى ما كتبه عنها الدكتور فاضل صالح السامرائي [١] .

ان قراءة المصنفات النحوية فى الفترة السابقة على الزمخشرى توحى بأن فكرة فى التصنيف النحوى كانت تراود خيال النحاة وتدور فى خلدهم وتحفزهم الى التأليف على أساسها وتغريهم بتصنيف المادة النحوية على نسق جديد يخالف ما صنعه سيبويه فى كتابه ، وكانت هذه الفكرة تظهر فى صور أربع :

تظهر مرة فى صورة تصنيف للنحو على أساس نظرية العامل بمعنى : أن يكون العامل النحوى هو المتحكم فى سير التصنيف والمنظم لفصول النحو وأبوابه .

وتظهر مرة ثانية فى صورة تصنيف للنحو على أساس تأثير العامل أو الشكل الإعرابى ، الذى يستلزمه هذا العامل أو ذاك بمعنى : أن يكون شكل الكلمة فى الجملة هو المتحكم فى عملية التأليف وفى تنظيم المادة النحوية .

وتظهر مرة ثالثة فى صورة تصنيف الأحكام اللغوية على أساس الفصل بين قضايا النحو وقضايا الصرف ، بمعنى : أن يكون تصنيف القواعد النحوية مستقلا تماما عن القواعد الصرفية .

وتظهر مرة رابعة فى صورة تصنيف الأحكام النحوية على أساس النظر فى المفرد وفى المركب بمعنى : أن يكون البحث النحوى موزعا بين قسمين رئيسيين : البحث فى المفرد وأحكامه ، ثم البحث فى التركيب اللغوى أو الاسنادى من حيث هو كل مكون من أجزاء .

---

(١) رسالة الدكتوراه بعنوان ـ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشرى ـ ص١٨ـ٢٢

هذه الفكرة فى صورها الأربعة ظلت ماثلة ـ كما يبدو ـ فى تصور النحاة ؛ ولكن حين كان يراد لها التنفيذ والظهور تبقى غامضة مبهمة ؛ اما بتزاحم صورها تحت ضغط الموضوع ، وإما بنسيانها أو تناسيها أثناء سير التصنيف .

ومن الإنصاف أن نقرر :

أن هذه الفكرة فى صورها الأربعة كانت فى تقدير سيبويه ، ويمكن القول إنه بدرت منه محاولات لتطبيق ذلك فى كتابه ؛ ففى الصفحات الأولى يعالج الكلمة أو اللفظ المفرد ، وبعد ذلك يعالج التركيب الاسنادى حيث يبدو أحياناً متأثراً بنظرية العامل ، ويبدو أحيانا أخرى مستجيباً لنظرية العمل ، وقد يضطرب سيره بين النظريتين ؛ وفى الجزء الأخير من كتابه يحصر حديثه عن القضايا الصرفية كما تصورها فحشر منها بعض المسائل النحوية ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى .

كان لدى سيبويه إذن وعى بفكرة التصنيف على أساس من هذه الصور الأربعة ، ولكن يبدو أن عدم التخطيط الدقيق قد أضعف قدرته على التنفيذ وجعل القضايا النحوية تفرض نفسها عليه وليس هو الذى يفرض منهجه عليها .

ومن أجل ذلك كان من المتعذر عليه أن يسلك فى تصنيفه سبيل واحدة من هذه الصور ويؤلف كتابه وفقاً لها ، كما يتعذر على القارىء الآن أن يلحظ هذه المحاولات فى خضم هذا الحشد من القواعد اللغوية : نحوية، وصرفية، وبيانية ؛ فهى تكاد تشبه أموراً كامنة فى العقل الباطن .

وإليكم بعض المؤلفات النحوية التى تصور الغموض والإبهام والاضطراب فى فكرة التصنيف :

هناك رسالة صغيرة بعنوان ـ مقدمة فى النحو ـ يقال إنها من عمل ، خلف الأحمر ، الذى عاصر سيبويه . قراءة هذه الرسالة توحى بأن مؤلفها كان فى حيرة بين أمرين ، الأول : تأثره بنظرية العامل ؛ والثانى : تأثره بعمل هذا العامل ، أى بالشكل الاعرابى ؛ ومن هنا ظهر الاضطراب فى تتبعه لكل منهما ، حيث تداخلا فى بعض المواطن .

وهناك ـ المقتضب ـ للمبرد ، الذى جاء بعد سيبويه بنحو مائة سنة ؛ وهنا يبدو المبرد حين يتحدث عن أجزاء الجملة وكأنه متأثر بنظرية العمل ، أى أثر العامل فى الاشكال الاعرابية ؛ غير أن القارىء لهذا الكتاب لا يلبث طويلا تحت هذا الإحساس حتى يختلط عليه الأمر بين السير وراء نظرية العمل ، والسير وراء اعتبار آخر ، هو تقديم الحديث عن الأهم على الحديث على الهام .

وهناك كتاب ـ الجمل ـ للزجاجى ، الذى جاء بعد سيبويه بنحو قرن ونصف ؛ فى هذا الكتاب يظهر المبرد وكأنه متأثر بنظرية العامل وخاضع لما تفرضه عليه ؛ ولكنه لا يلبث طويلا تحت هذا التأثير حتى تزدحم عليه القضايا النحوية فيضيع من يده خيط هذه النظرية ويخضع فى سيره لاعتبارات أخرى .

وهناك كتاب ـ التفاحه فى النحو ـ لأبى جعفر النحاس ، الذى جاء بعد سيبويه بنحو قرن ونصف ، حيث يبدو وكأنه يؤلف النحو وفقاً لما تمليه نظرية العامل ؛ غير أن هذه النظرية لا يستمر تأثيرها على المؤلف طويلا فتضطرب أولا ثم تختفى بعد ذلك .

وهناك كتاب ـ الإيضاح ـ للفارسى ، الذى جاء بعد سيبويه بنحو مائتى سنة ؛ فى هذا الكتاب يبدو أن سير التصنيف فيه يجرى أولا وفقاً

لقضية العامل ؛ ثم يتخلف عن هـذه القضية ليسير ثانيا وراء قضية العمل أو الشكل الاعرابى ؛ ثم يضطرب أمر القضيتين ثالثا ويختلط السير وراء إحداهما بالسير وراء الآخرى فى بقية الكتاب .

وهناك كتاب ـ اللمع ـ لابن جنى ، الذى كان تلميذاً للفارسى ، حيث نجده متأثراً بفكرة العمل ؛ غير أن هذه الفكرة تهتز وتضطرب حينما يدخل فى اعتباره قضية العامل ويمضى فى تصنيفه بعض الشوط متأثراً بها.

وهناك كتاب ـ ملحة الاعراب ـ للحريرى، الذى توفى قبل الزمخشرى بنحو ربع قرن ؛ ويمكن أن نلاحظ عليه تأثره فى تصنيفه بفكرة العمل ، أى الأشكال الاعرابية . ولكن هذه الفكرة لا تستقر ولا تتحكم بفاعلية فى سير التصنيف .

من ذلك نرى أن موضوع التصنيف النحوى وفق منهج محدد كان ماثلا فى ذهن النحاة وأن ذلك برز فى صور متعددة ؛ كما نرى أنه بقفزة سريعة إلى ما صنعه الزمخشرى فى المنهج النحوى وفى إخضاع المادة النحوية له نستطيع أن نتبين مدى التطوير الذى أدرك التصنيف النحوى على يد الزمخشرى ؛ ولكنه تطوير يتناول التخطيط للدرس النحوى ، والتصنيف على أساسه ، أكثر من تناوله للمادة النحوية نفسها من حيث ما تشتمل عليه من قضايا وأحكام .

مدرسة الزمخشري النحوية وأثرها في البيئة العلمية :

تطور الدرس النحوى فى أيام الزمخشرى بصورة واضحة وأصبحنا فى حل من القول إنه فى أثناء حياته وممارسته للدراسات النحوية استطاع أن يؤسس مدرسة نحوية جديدة لها أصالتها ، ولها منهجها ، ولها طلابها .

ومن أجل ذلك استطاعت أن تزهو بشخصيتها على المجتمع المثقف . وبقيت تنمو ويتسع نفوذها ويزداد عدد الدارسين فيها أساتذة وطلابا حتى تمكنت من أن تفرض نفسها على البيئات العلمية بعد وفاته بزمن قليل .

كان موضوع الدرس فيها مؤلفات الزمخشرى ، وعلى رأسها كتاب المفصل ، الذى اعتبر من حيث مادته ، وتصنيفه ، وطريقة معالجته للقضايا النحوية أعظم كتاب ظهر بعد كتاب سيبويه ؛ ولعل من أهم مميزاته أنه تخلى عن كل ما كان يشوب المؤلفات النحوية من الحشو والاستطراد وذكر الخلافات ، كما تخلى عن التعليلات العقلية أو المنطقية ؛ تلك التعليلات التى طغت ، فى كثير من أبواب النحو وفصوله ، على المادة النحوية نفسها فجعلتها تختفى أو تكاد فى غمرة آثار الدراسة الفلسفية من جدل ونقاش وبحث عن الأسباب وإغراق فى التجريديات .

إن دراسة الظروف الثقافية لعصر الزمخشرى — وهو أمر ندعو إليه باستمرار للتعرف على حقيقة أية مادة علمية أو أية ظاهرة ثقافية — تشير إلى أن دارسى النحو العربى كانوا فى حالة ملل من هذا الدرس الذى يمتزج

فيه النحو باللغة والمنطق والفلسفة والذى لايتلاءم أبدا مع متطلبات التعليم إذ ذاك من تخصص ومنهجية وتنظيم ؛ لهذا لم يكد يظهر كتاب المفصل حتى أقبل الدارسون عليه إقبالا لايعادله تقريبا إلا الإقبال على كتاب سيبويه بعد وفاة صاحبه ؛ ذلك لأنهم وجدوا فيه طلبتهم متمثلة فى الحصول على المادة النحوية خالصة من الشوائب وسهلة التناول فى عبارة موجزة .

امتد أثر المدرسة الزمخشرية وارتفعت مكانة — المفصل — عند الدارسين ، بل تجاوز ذلك إلى مستوى أولى الأمر الذين كانوا يشاركون مواطنيهم فى الحاجة إلى نقلة جديدة بالنسبة للدراسات اللغوية ويجدون فى كتاب المفصل استجابة لتلك الحاجة . فلم يكد يمضى على وفاة الزمخشرى نصف قرن حتى نجد الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ يرصد لكل من يحفظ — المفصل — مكافأة من المال تقدر بمائة دينار يضاف إليها خلعة : وهذا مبلغ كبير إذا أخذنا فى الاعتبار قوته الشرائية فى ذلك الوقت ؛ وعلى ضوء هذا يمكننا أن نتصور مدى ما يحدثه هذا التشجيع المادى والأدبى من إقبال وحماس بالنسبة لدراسة المفصل والعناية بما فيه .

وهناك طائفة أخرى لم يكن اهتمامها بالمفصل أقل من اهتمام أولى الأمر مع طلاب الدرس النحوى ؛ تلك هى طائفة الباحثين والعلماء ، الذين أقبلوا على نفس الكتاب يقرؤنه ويشرحون نصوصه ويعلقون على ما جاء فيه حتى أصبح بمثابة المحور الذى يدور حوله مجهودهم الذهنى ونشاطهم العقلى .

وهكذا حل كتاب المفصل فى الأوساط اللغوية أثناء القرن السادس والسابع من الهجرة محل كتاب سيبويه فى القرون السابقة على الزمخشرى .

ويكفى أن نطلع على الآثار اللغوية والنحوية المؤلفة فى خلال هذين القرنين وأن نرصد المواطن التى يتردد فيها ذكر الزمخشرى ومؤلفاته وآرائه

من هذه المؤلفات لنعلم مبلغ تأثيره على هؤلاء العلماء والباحثين والمؤلفين ، الذين كانوا يدورون فى فلك مؤلفات الزمخشرى يستوضحون ما يحتاج منها إلى إيضاح ويفصلون ما جاء فيها مركزا ويستدلون بآرائها على سلامة ما يصنعون .

وليس من شك أن تأثر هؤلاء العلماء بمدرسة الزمخشرى واقتفاءهم لآثاره النحوية قد جعلهم يحجمون عن الخوض فى الشكليات والتفصيلات . وعن الاسترسال فى القضايا التجريدية والمسائل النظرية والتعليلات النحوية والتطبيقات المنطقية ؛ كما جعلهم يتجهون إلى المادة النحوية نفسها يدرسونها تحليلا وتركيبا ويفهمونها نصا وروحا ويجمعون بين المتشابه من عناصرها ويؤلفون بين المجموعات العديدة من أحكامها وقوانينها .

لعل فيما ذكرناه حتى الآن عن الدرس النحوى فى المدرسة الزمخشرية ما يكفى لتوضيح حقيقة النحو ووظيفته كما كان يتصورهما الزمخشرى ، ونضيف إلى ذلك موقفه من قضية نحوية هامة لا تتصل بمنهج الدرس النحوى ولا بالقضايا النحوية المتصلة بقواعده وأحكامه ، ولا بطريقة معالجة هذه القضايا ؛ ولكنها تتصل بالنص اللغوى وصلة الدرس النحوى بها من حيث المعنى أو الدلالة .

هذه القضية كانت تشغل فى صمت رجال النحو واللغة منذ عصر سيبويه حتى أيام الزمخشرى ؛ واستمر الصمت يلازمها حتى العصر الحديث . ونعنى بملازمة الصمت لهذه القضية أنها وجدت فعلا فى بعض المؤلفات النحوية أو اللغوية وعولجت من بعض جوانبها ولكن أحداً لم يثرها كقضية مستقلة يتصدى لها مؤيدون ومعارضون كل يحاول جهده فى إثباتها أو نفيها لكى تتخذ لها مكانا بين القضايا النحوية الأخرى . ويمكن أن توضع هذه القضية فى صيغة هذا السؤال :

هل تصورنا للنحو يمتد إلى الدلالة اللغوية فى الجملة أو التركيب ؟

أو بمعنى آخر :

هل من وظيفة النحو أن يتناول المعانى البيانية للنص اللغوى كما يتناول الأشكال الإعرابية أم أنه قاصر على النظر فى الأشكال المختلفة على أواخر الكلمات فى النص اللغوى ؟

قلنا منذ قليل إن هذه القضية عولجت فى بعض المصنفات القديمة التى وصلت إلينا دون إبرازها وإثارتها كقضية مستقلة ؛ ولكنها كانت تُبحث وتعالج ضمن قضايا لغوية متعددة وقضايا نحوية مختلفة دون أن نتبين فكرة المؤلفين من حقيقتها ولا عن وضعها بالنسبة للمباحث النحوية : عالجها أبو عبيدة فى كتابه — مجاز القرآن — وعالجها الفراء فى كتابه — معانى القرآن — وعالجها الشيخ عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه - إعجاز القرآن - .

تقوم هذه الكتب الثلاثة — كما يبدو من عناوينها وكما يتضح من قراءتها — على إظهار الصلات وكشف الروابط بين اللفظ والمعنى ، بين الصورة والمضمون ، بين النص اللغوى والدلالة البيانية،وذلك لكى يتضح أمام القارىء حظ القرآن من الفصاحة ومكانته من البلاغة والبيان .

ولكى يصل أصحاب هذه المؤلفات إلى تلك الغاية تراهم يدخلون فى حسابهم ويتناولون ضمن مايتناولون كثيرا من القضايا النحوية ، ويعالجونها فى شمول ودقة حتى تكاد القضية الأساسية أن تغيب أحيانا وسط زحمة غيرها من القضايا النحوية وفى غمرة ذلك الحشد الكبير من الملاحظ والظواهر المتصلة بقوانين النحو وأحكامه .

ولو نظرنا من زاوية أخرى إلى المباحث النحوية العديدة التى ظهرت فى العصور السابقة على الزمخشرى والتى كانت تتناول حشداً من الظواهر اللغوية

المتصلة بالنحو والصرف ، والبلاغة والصوتيات ؛ نقول ، لو نظرنا من زاوية أخرى إلى ذلك الإنتاج لوجدنا أن هذه المباحث النحوية - كما اعترف لها بذلك - لا تأبى ولا تستبعد أن يكون من بينها هـــذه الكتب الثلاثة ؛ وذلك لاعتبارات متعددة ، منها معالجتها لكثير من المسائل النحوية الخالصة أو لمسائل يمكن أن تخدم النحو فى أصوله أو فروعه أو أسراره أو غاياته ؛ ومنها ما تشتمل عليه من آراء وأفكار لاتصدر غالباً إلا عن ثقافة نحوية واسعة ؛ ومنها مايشيع فيها من وجهات نظر عديدة لا يمكن إلا أن تكون تصويراً للدرس النحوى والإنتاج النحوى فى تلك الفترة من الزمن .

يضاف إلى ذلك أن مؤلفى هذه الكتب لايشك إنسان فى أنهم من رجال النحو المبرزين ، ومن أصحاب المذاهب فيه ، كما لايشك إنسان فى أن شهرتهم العلمية لم تقم إلا على أساس الإدراك العميق والإلمام الكامل بأصول النحو وفروعه ، وبمتن اللغة وما يتصل به من أساليب وقوانين وأحكام .

وعلى هذا فموقف المؤلفين لهذه الكتب مضافاً إليه نظرة القدماء إلى حقيقة النحو ووظيفته وغايته والمجالات المتشعبة للمباحث النحوية يسمح بأن تعد قضية الدلالة أو البيان اللغوى ضمن القضايا النحوية وبأن لاتكون هناك غرابة فى معالجتها داخل المباحث النحوية وفى حدود الأبعاد التى يرسمها التخطيط للدرس النحوى إذ ذاك .

كان للزمخشرى موقف واضح من هذه القضية ؛ ولكنه لم يكن صريحاً فى ذلك ؛ بمعنى أنه لم يتعرض لها فى مؤلفاته ولم يعالجها إيجاباً ولا سلباً ، بل التزم الصمت بالنسبة لها مما هيأ للدارسين فهم موقفه منها وإصدار حكمهم عليه . ونرى أن نترك موقف الزمخشرى مؤقتاً من هذه القضية لنعود إليه ونوضحه بعد التعرف على موقف المحدثين منها .

أثيرت هذه القضية منذ سنوات وسرعان ما اتخذت أبعاداً فى مجال الدراسات اللغوية وانقسم اللغويون بشأنها إلى فريقين :

فريق يؤيد وجهة النظر التى تعتبرها من صلب النحو وتراها من مكملاته ولا تجد غضاضة فى معالجتها بهذا الاعتبار على المستوى الدراسى والمستوى التصنيفى ؛ وكان على رأس هذا الفريق الأستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله .

وفريق آخر يؤمن بنظرية التخصص الدقيق فى العلوم مهما اقتربت أصولها فيبعد هذه القضية عن المجال النحوى ويرى فيها ملامح قضية بلاغية . وعلى ذلك فموطن دراستها ومعالجتها هو فى علوم المعانى وليس فى المباحث النحوية ،التى ينبغى أن تقتصر - فى نظره - على الأشكال الاعرابية والبنائية المتعاقبة على أواخر الكلمات والدالة على وظائف هذه الكلمات فى التراكيب اللغوية ؛ وكان على رأس هذا الفريق الأستاذ أمين الخولى رحمه الله .

واشتد الخلاف بين هذين الفريقين واتسعت أبعاده فيما كان يلقى من دروس . وينظم من ندوات ومحاضرات ، وظهرت آثاره فيما كان ينشر من بحوث وبين طلاب كل من هذين الفريقين ؛ ولكن - مع ذلك - لم يحسم فى هذه القضية برأى أثناء حياة هذين العالمين الجليلين. وبقى أمر البت فيها معلقاً حتى اليوم ، كما بقى أمر البت فى وظيفة النحو ومجالاته معلقاً كذلك .

وإذا كان لنا رأى فى هذه القضية فإننا نؤثر عرضه فى إيجاز :

إننا نعتقد أنها قضية نحوية وأن البحث النحوى ينبغى أن يمتد فيشمل الميادين البيانية بجانب الميادين الشكلية اعراباً وبنـــاء . ذلك لأن النحو فى نشأته كان يشمل كل المباحث اللغوية وكان يطلق عليها جميعها ، وكان مرادفاً لكل العلوم اللغوية ، كما كان القائمون على هذه المباحث اللغوية يعرفون بالنحاة ، على أن ذلك لم تنفرد به اللغة العربية ؛ بل كان هذا شأن النحو والنحاة بالنسبة للإغريقية واللاتينية .

صحيح أنه عندما اتسعت دائرة المعارف اللغوية أخذت تظهر تخصصات متعددة فى هذه اللغات الثلاث ، كل واحد منها يحاول أن يعالج النص اللغوى

من زاوية معينة لعل أهمها فى الماضى زاوية الدلالة البيانية ؛ ولكن أمر النحو والبيان قد انتهى فى العصر الحديث أو كاد ينتهى إلى اعتبارهما مبحثاً واحداً يعرف بالبحث النحوى تعالج فيه قضايا اللفظ من حيث البنية والصيغة والشكل ، كما تعالج فيه قضايا التركيب اللغوى من حيث المعنى والدلالات البيانية ؛ وهكذا أخذ النحو يعود كما بدأ فى كثير من اللغات الأجنبية الحديثة وينبغى ألا تشذ العربية عن غيرها فى هذا السبيل .

والآن ماحقيقة موقف الزمخشرى من هذه القضية ؟

للزمخشرى مؤلفات عدة فى المجال اللغوى ؛ لعل أهمها بالنسبة للقضية التى نحن بصدد الحديث عنها أربعة : المفصل ، الأنموذج ، مقدمة الأدب المفرد والمؤلف .

أما المفصل فلا يتعرض لهذه القضية ؛ وتصوره للنحو يقوم أساساً على النظر فى المفرد ؛ فيتناوله من حيث نوعه ثم يفرع على كل واحد من أنواعه جميع ما هو متصل به من أحكام نحوية وصرفية ؛ فأنت تراه ـ وفقاً لهذا التخطيط ـ يتحدث عن الاسم ، ثم عن الفعل ، ثم عن الحرف ، ثم يضيف قسما رابعاً ـ المشترك ـ فيتحدث عنه كذلك . يتناول القسم الرابع بعض ظواهر لغوية يوجد بعضها فى كل من الاسم والفعل والحرف ، ويوجد البعض الآخر فى اثنين منها على الأقل ؛ ومن هنا جاءت تسمية هذا القسم بالمشترك ؛ وذلك كظاهرة الامالة ، وظاهرة الوقف ، وظاهرة التقاء الساكنين ، وظاهرة الزيادة ، وظاهرة الابدال ، وظاهرة الاعلال ، وظاهرة الادغام .

وأما الأنموذج فهو بعيد تماماً عن هذه القضية أيضاً ؛ ذلك لأنه اختصار لما جاء فى المفصل من أحكام نحوية وصرفية .

وأما مقدمة الأدب فهو - رغم عنوانه - كتاب فى النحو ، ويكاد يكون صورة مكبرة من المفصل ؛ إذ إنه يعالج القضايا النحوية بمنهج يشبه كثيراً منهج المفصل ؛ العناية تتجه إلى اللفظ المفـــرد وأقسامه الرئيسية خمسة : الأسماء ، الأفعال ، الحروف ، تصريف الأسماء ، تصريف الأفعال .

وأما المفرد والمؤلف فهو الذى يحمل - بعنوانه - مظنة التعرض لقضية الدلالات البيانية من وراء تسليط الضوء النحوى على التركيب اللغوى . ومن أجل ذلك ربما كان هذا الكتاب جديراً بشيء من التفصيل .

ألف الزمخشرى هذا الكتاب لسكان مكة فظهر كأنه استجابة لظروف خاصة ولغرض خاص ، حيث كدس القواعد النحوية فى بابين اثنين ، هما باب المفرد : ويتحدث فيه عن الكلمة وأحكامها وأنواعها ؛ ثم باب المؤلف: ويتحدث فيه عن الجملة أو التركيب اللغوى وأنواعه وأحكامه .

هذا الكتاب - رغم إيجازه الشديد وعملية السرد الرتيبة للقواعد وسرعة التناول والاكتفاء برؤوس المسائل - يصور نظرة جديدة إلى الدرس النحوى والتخطيط له ؛ فهو يتخلص من فكرة التقسيم للكلمة ويقوم بنوع آخر من التقسيمات ، الأساس فيه المفرد والمركب ؛ فالمفرد : يتناول الاسم والفعل والحرف ؛ ويمضى الزمخشرى فى التعريف بكل ، وفى ذكر أقسامه وأحكامه الاعرابية والبنائية ؛ ثم يتحدث عن القسم الآخر - المؤلف - حيث يصنفه تصنيفاً لم يسبق إليـــه واضعاً فى اعتباره التركيب اللغوى وما يتكون منه ؛ وهذا هو الذى يعنينا ؛ يقول الزمخشرى ؛ المؤلف على ضروب ، منها :

المؤلف من اسمين وهو المبتدأ مع المبنى عليه نحو قولك: زيد قائم وعمرو غلامك . ووجه ائتلافهما كون الثانى مسند إلى الأول ومحدثا به عنه وتقع الجملة موقعه فتأخذ حكمه بأنها حديث عن الأول ، وذلك بسبب يصل بينها

وبينه من ضمير رجع منها إليه ، وأن محلها محكوم عليه بإعرابه ، وهو الرفع، وهى إما إسمية نحو: زيد أبوه منطلق أو فعلية نحو: زيد قام غلامه ... وزيد أمامك أو فى الدار أو من الكرام لأن التقدير استقر أمامك ، وحقها أن تكون كالمنوب عنه فى صحة الصدق والكذب فيها ، لأن وجه الائتلاف هو معنى الخبرية ، وإذا زال هذا المعنى فلا ائتلاف ، ومن ثم لم يستقم : زيد هل ضربته ، وزيد أضربه ، وعمرو لا تكرمه ، وبكر لولا أكرمته ، والمضاف مع المضاف إليه ، ووجه ائتلافهما إما معنى الاختصاص أو معنى التبيين فالاختصاص فى قولك : غلام زيد ، لأن الاضافة بمعنى اللام الموضوعة للخصوصية ، والتبين فى قولك : خاتم فضة ، لأن الاضافة بمعنى من التى للبيان، ويقال لهذه الاضافة المعنوية والحقيقية لأنها مسوقة لافادة معنى لها ؛ وأما الصفة المضافة إلى فاعلها أو مفعولها نحو: حسن الوجه، وضارب زيد، فتأليف واقع لفظاً على طريق الشبه ... ويقال لها اللفظية والمجازية .

ويمضى الزمخشرى بنفس المنهج فى بيان أنواع التأليف اللغوى من حيث الألفاظ أو الكلمات التى يتكون منها هذا التأليف .

ويمكن ملاحظة أن البحث فى المؤلف أو فى التركيب اللغوى بحث لفظى يتناول عناصر هذا المؤلف أو أجزاء هذا التركيب تناولا لفظياً وبعقلية تتمسك إلى حد بعيد بالأحكام اللفظية أو الشكلية ولا تتعرض للدلالة البيانية للجملة .

صحيح أن الزمخشرى فى معالجته للمؤلف يُدخل فى مفهوم الدرس النحوى الدلالة التركيبية أو المعانى الاسنادية بجانب الأشكال اللفظية أو الحركات الاعرابية التى أثرت على تفكير النحاة منذ القرن الثانى حتى القرن السادس للهجرة، ولكن صحيح أيضاً أن الزمخشرى فى حديثه عن المؤلف لم يتعرض للناحية الأسلوبية أو البيانية كما رأينا عند أبى عبيدة، والفراء — وإنما قصر

بحثه على طبيعية ونوعية الكلمات التى كونت هذا التركيب اللغوى متغاضيا عن الجانب الدلالى أو القيمة البيانية للجملة .

ومعنى هذا ببساطة أن الزمخشرى قد حسم الموقف بصنيعه لا بتصريحه ودلنا على أنه يرى الفصل بين المبحث النحوى والمبحث البيانى، وذلك عكس ما رأيناه فى المباحث النحوية السابقة ، التى كانت تمزج المباحث اللغوية بعضها ببعض ، وتوحى بأنها جميعاً تصدر عن أصل واحد هو النص اللغوى، وتهدف إلى غاية واحدة هى الفهم الدقيق لأسرار اللغة حتى يتمكن العلماء من إدراك النصوص واستنباط القوانين .

ويضاف إلى ذلك أيضاً — أى إلى حسمه الموقف بالعمل لا بالقول — ماصنعه فى كتابه — أساس البلاغة — حيث بحث فيه بشكل واضح قضية الدلالة البيانية، ويدل هذا على أنه عزل هذه القضية عن البحث النحوى ورأى لها مكانا آخر . يقوم، أساس البلاغة، على البحث عن أركان فن الأدب؛ حيث يذكر فيه المجازات اللغوية ، والمزايا الأدبية ، وتعبيرات الأدباء البلغاء ؛ هو يبحث فى استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل ؛ كما يفصل استعمالها فى الحقيقة ، والمجاز والكناية مفرقاً بين الثلاثة .

المدرسة النحوية الجديدة وكتاب المفصل

— ٤ —

تقوم المدرسة النحوية الجديدة التى أسسها الزمخشرى ، على كتاب المفصل ، فما هو تقييمنا لهذا الكتاب ؟

للمفصل مكانة مرموقة فى عصر الزمخشرى وفيما تلاه من عصور ، وظهر ذلك فى اهتمام الناس به وانكباب العلماء على تدريسه وخدمة ما جاء فيه والتركيز عليه دون سواه من الكتب النحوية السابقة حتى أصبح الكتاب النحوى الرئيسى الذى يعتمد عليه فى الأوساط العلمية شرقاً وغرباً بعد كتاب سيبويه ؛ بل إنه أخذ مكان كتاب سيبويه فى بعض البيئات .

قد يبدو غريباً أن يكون المفصل على هذه الدرجة من التقدير وهو الذى لم يكلف الزمخشرى فى تأليفه أكثر من سنة وأربعة أشهر [من غرة رمضان سنة ٥١٣ إلى غرة المحرم سنة ٥١٥] ؛ غير أن هذه الغرابة تزول حينما ندرك أن المادة النحوية كانت معروفة لديه وماثلة فى تصوره بأبعادها وتفاصيلها ولم يكن أمامه سوى وضع المنهج وتوزيع المادة . ولم يكن غريباً على كتاب المفصل أن يحاط بظروف وملابسات تشبه نفس الظروف والملابسات التى أحاطت بكتاب سيبويه .

قيل عن كتاب سيبويه إنه قرآن النحو ؛ وكذلك قيل فى المفصل :

مفصل جار الله فى الحسن غايته — وألفاظه فيه كدر مفصل
لولا التقى قلت المفصل معجز — كآى طوال من طوال المفصل

واهتم علماء اليهود فى أسبانيا بكتاب سيبويه اهتماماً بالغاً حتى نقلوه إلى لغتهم

العبرية ليكون دستوراً يؤلفون نحـو لغتهم على نمطه : وكذلك كان الشأن بالنسبة للمفصل حيث اهتم به ابن العبرى ورأى فيه غاية ما يمكن الوصول إليه فى التأليف النحوى ؛ كما رأى من الضرورى أن يعرف محتوى هـذا الـكتاب لدى أصحاب اللغات الأخرى لمحاكاته والسير على نمطه .

وازداد تعلق الناس بكتاب سيبويه والاقتناع بما جاء فيه،حتى تنافسوا فى اقتنائه وحفظ مادته ؛ وكذلك صنع الناس بـكتاب المفصل حتى أن بعض الملوك كان يكافىء من يحفظه بمبلغ ١٠٠ دينار وخلعة .

وانصرف العلماء بعـد كتاب سيبويه يائسين من الإتيان بجديد على مادته إلى درس هذا الـكتاب وتفهمه والاجتهاد فى شرحه وإقرائه والتعليق عليـه وانتزاع بعض مواده لتـكون موضوعا جديداً للتصنيف النحوى ؛ ولم يمض زمن طويل حتى رأينا عشرات العلماء يؤلفون حـول كتاب سيبويه؛وكذلك الشأن بالنسبة للمفصل حيث يخلق ما يشبه الشعور باليأس عند العلماء من الاتيان بجديد فى النحو بعد الزمخشرى ؛ ومن أجل ذلك نراهم يعكفون على درسه ، وإقرائه ، والتصنيف من حوله ؛ فقد شرحه أكثر من ثلاثين عالما — لعـل أشهرها شرح ابن يعيش — وكذلك اختصره ، ونظمه عدد آخر من العلماء .

أشرنا فيما مضى أن المفصل يعتبر استجابه لمتطلبات عصره حيث اتسعت المعارف واحتاج الأمر إلى التخصص فى العلوم وفروعها ، ووجدت المدارس المنظمة للمعارف وفق مناهج مرسومة ؛ ونضيف إلى ذلك أن المفصل — فوق أدائه لمتطلبات العصر والبيئة والعقلية — كان ملتزما إلى أبعد حد بمنهجه النحوى الجديد الواضح الدقيق ؛ وهذه سمة فى التأليف لم نرها من قبله ؛ ولا يصعب علينا تلمس هذه السمة من قراءته متمثلة فى كثير من المواطن

لما كانت هناك مظنة احتمال البحث فى ظاهرة الاعراب ضمن قسم المشترك لأنها تدخل فى الأسماء والأفعال ، كالامالة مثلا ، وقد تعرض الزمخشرى لها فى قسمى الأسماء والأفعال ؛ نقول : لما كان أمر هذه الظاهرة كذلك فقد أدركها صاحب المفصل، وذكر مبرراً لصنيعه ؛ إذ قال إن الاعراب أصل فى الأسماء،فرع فى الأفعال،فحملت الأفعال بالنسبة لهذه الظاهرة ، على الأسماء ؛ وبذلك أصبح الاعراب ظاهرة أصيلة فى الاسم فقط وليست مشتركة بينه وبين الفعل .

وهناك فى مواطن أخرى من المفصل نجد الزمخشرى يعلل لبعض الظواهر وهو لا يقصد من وراء ذلك سوى الدفاع عن منهجه والتبرير لصنيعه فيما يمكن أن يلاحظ من مخالفات لذلك المنهج . وهذا يشرح مبلغ الحرص على الالتزام بين المنهج والتطبيق .

وفوق هذا الالتزام المنهجى الدقيق يمتاز المفصل بالأصالة متمثلة فى مخالفاته الكثيرة لسيبويه، بالنسبة لبعض المسائل النحوية ؛ وقد حفز ذلك بعض العلماء إلى تصنيف كتاب يجمع المسائل التى كانت موضع خلاف بين الزمخشرى وسيبويه ؛ ومعنى ذلك أن الزمخشرى كان يصدر أحكامه بجرأة وثقة يشعران أنه يصدر ما يصدر معتمداً على حسه اللغوى المرهف وعلى تمكنه من زمام العربية حتى يبدو أنه صاحب الشأن فى النص اللغوى، يدرك أسراره وأبعاده بفطرته وحسه ، لا بدراسته وعقله ؛ وعجيب أن يصل الزمخشرى إلى هذه المكانة فى العربية وهو الرجل الأعجمى ! ! لقد جمع الدكتور فاضل صالح السامرائى[1] عدداً غير قليل من المسائل التى

---

(١) انظر الفصل الخاص بكتاب المفصل فى رسالته للدكتوراه — الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشرى .

تتجلى فيها أصالة الزمخشرى وجرأته واعتماده على وعيه ، وحسه ، وإدراكه دونه ، بما حفظ أو درس أو سجله السابقون عليه من أئمة اللغة والنحو العربى .

ولعل مسألة الاستشهاد بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تجىء على رأس هذه المسائل حيث اتخذ الزمخشرى من هذه الأحاديث أصلا من أصول اللغة للاستشهاد بها على قواعد النحو وأحكامه ضارباً صفحاً عن صنيع سيبويه ، الذى لم يستشهد فى كتابه بحديث واحد .

ولم يقف تأثير المفصل بمادته ومنهجه ومعالجته لقضايا النحو عند نحاة عصره أو الذين جاءوا بعده مباشرة ؛ وإنما ظهر هذا التأثير أيضاً فى عصر ابن مالك وفى مدرسته النحوية الجديدة التى نعتبرها — بناء على منهجنا فى هذه العجالة — المدرسة النحوية الثالثة فى العالم العربى ، بل امتد تأثير المفصل إلى هذا العصر الحديث ، عصر المحاولات العديدة لتيسير النحو ورسم حدوده وتوضيح اتجاهاته . وسنرى ذلك عند الحديث عن تطور الدرس النحوى لدى ابن مالك . وفى العصر الحديث إن شاء الله .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الفصل نعتبرها متممة له ؛ فتقييم الكتاب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتقييم صاحبه ، ولعل أبرز ما يصور شخصية الزمخشرى كعالم لغوى عظيم هو اتصافه بالاجتهاد فى النحو : وقد ظهر هذا الاجتهاد فى كثير من المسائل النحوية . ولما لم يكن من السهل هنا إحصاء هذه المسائل فسنكتفى بأمثلة منها توضح طريق الاقتناع أمام من يتردد فى ذلك .

١ — يقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه — المفصل — :

« ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب ومابي من الشفقة والحدب على أشياعي من حفدة الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب محيط بكافة الأبواب ... »

وهنا ثارت ثائرة اللغويين على الزمخشري :

كيف يستعمل كلمة — كافة — مجرورة بالباء وهي لا تستعمل إلا حالا ومنصوبة ؟

ويبدو أن المتعارف عليه بالنسبة لهذه الكلمة كان استعمالها حالا منصوبة وأنها لم تسمع عن العرب بغير ذلك : كما يبدو أن الحريري — وهو معاصر للزمخشري — استعملها مجرورة فعابوها عليه وشذذوها وقالوا : إنه استعمال قياسي ؛ وهو باطل لأن القياس لا يبطل السماع .

ولعل خير من يصور موقف اللغويين من هذه القضية ضد الزمخشري هو ابن يعيش ، شارح كتاب المفصل . حيث يقول :

« وقوله بكافة الأبواب شاذ من وجهين :

أحدهما : أن — كافة — لا تستعمل إلا حالا ، وها هنا قد خفضها بالباء ....

والوجه الثاني : أنه استعمله في غير الأناسي ، والكافة : الجماعة من الناس .... » .

ويستمر موقف اللغويين من الزمخشري بالنسبة لهذه القضية موقف المعارضة حتى العصر الحديث ، حيث نجد الشيخ حمزة فتح الله في

كتابه — المواهب الفتحية — مخطئاً للزمخشرى ومؤيداً للمعارضين .

ومع ذلك فالواضح من تعبير الزمخشرى فى مقدمة المفصل ، ومن مواقفه المتشابهة من مسائل لغوية ونحوية أخرى أنه مدرك لهذا الاستعمال ومصر عليه ومقدر لمسئوليته .

ومن ناحية أخرى نجد فى بعض النصوص المروية عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه استعمل كلمة — كافة — مجرورة بحرف الجر - على - : « ... على كافة بيت مال المسلمين » .

كما نجد فى كتاب — الألفاظ الكتابية — للهمذانى ، وهو العالم اللغوى المشهور ، المتـــوفى سنة ٣٢٧ ، أى قبل وفاة الزمخشرى بأكثر من قرنين ، نقول :

نجد عند الهمذانى استعمال كلمة — كافة — مجرورة لعطفها على مجرور حيث يقول :

« يقال أقبل فى جمهور أصحابه وكافتهم ودهمائهم(١) ... » .

وعلى هذا فما هو موقف الزمخشرى من هذه المسألة ؟

إننا نعتقد أن الأمر لايخرج عن واحد من اثنين : إما أن يكون قد لجأ إلى هذا الاستعمال ، صادراً عن حسه اللغوى واجتهاده الشخصى وإدراكه بوضع اللغة وإمكان تطور الاستعمال فيها ؛ وإما أن يكون قد اطلع على استعمال هذه

---

(١) الألفاظ الكتابية للهمذانى . ص ٦٨

الـكلمة لدى السابقين دون أن يتيسر ذلك لغيره من اللغويين لجاراهم فى استعمالها مجرورة كما ذكرها فى مقدمة — المفصل — واثقاً من صحة هذا الاستعمال .

ونحن أميَل إلى ترجيح الرأى الأول .

٢ — ينفرد الزمخشرى — فيما اطلعنا وفيما نعتقد — بالرأى القائل : إن - من - بمعنى بعض تـكون اسماً ويجرى عليها ما يجرى على الأسماء ؛ واستقر هذا الرأى بين اللغويين بعد الزمخشرى وساروا عليه قائلين إنه مذهب الزمخشرى ؛ وعلى هذا فقد أعرب المعربون لمتن ألفية ابن مالك هذا البيت :

والاسم منه معرب ومبنى ....

هكذا :

منه : مبتدأ - و - معرب : خبره

٣ — يرى الزمخشرى أنَّ — أنْ — حين تدخل على المضارع تحول معناه إلى الاستقبال : وانطلاقاً من هذا المبدأ يقرر أن خبر عسى - وهو فعل مضارع — يجب أن يقترن بـ — أن — ؛ لأن عسى للرجاء ؛ والرجاء يتجه إلى المستقبل ؛ ذلك فى حين يقرر النحاة أن الأكثر فى خبر عسى أن يقترن بـ — أنْ — وليس ذلك ملزماً .

وهناك عشرات الأمثـلة الدالة على شخصية الزمخشرى ، وتحرر تفـكيره من آراء القدماء ، وثقته فى نفسه ، وإصراره على سلامة مايراه .

لقد عقد الدكتور فاضل السامرائى فصلا خاصاً عن المسائل النحوية التى خالف فيها الزمخشرى غيره من النحاه ؛ غير أن موقف الدكتور السامرائى

كان محايداً . حيث يذكر المسألة ورأى الزمخشرى فيها ثم يتبع ذلك بموقف النحاة الآخرين .

ولو أنه حلل هذه المسائل تحليلا دقيقاً من ناحية اللفظ ، ومن ناحية المعنى ، ومن ناحية الملابسات لكل ، ومن ناحية العلاقات بين اللفظ وغيره من التراكيب اللغوية ؛ نقول ، لو أن الدكتور السامرائى فعل ذلك لكان أفيد لبحثه ، وأجدى للدرس النحوى ، وأمتع لقرائه ، ولاستطاع أيضاً أن يكشف أغوار الزمخشرى ويتبين مكانته فى الاجتهاد اللغوى .

لقد رأينا مواقف للزمخشرى فى إعرابه لآيات من القرآن تدعو إلى التأمل ؛ مواقف عجيبة وممتعة فى نفس الوقت : عجيبة لأنه يبدى فيها رأياً لم يسبق إليه ويصر على مخالفته للنحاة ؛ وممتعة لأنه يعرب وفقاً للمعنى وتمشياً مع الفكرة التى يؤديها النص ولو كلفه ذلك كسر القيود النحوية التى وضعها ، أو بالأحرى ، التى صنعها النحاة .

ويكاد القارىء يحس أن الزمخشرى يصدر فى إعرابه عن حسه ، عن فهمه للمعنى لا عن القواعد النحوية الملقنة المحفوظة .

اعتذار :

ذكرنا فى المقدمة أننا سنمضى فى الحديث عن — تطور الدرس النحوى — حتى نصل به إلى عصر ابن مالك ومدرسته النحوية فنذكر ما يتصل بذلك .

ورغم أن مادة الحديث موجودة فقد عدلنا عن تسجيلها وأرجأناها للعام القادم ؛ وذلك لأننا لم نعرضها على طلاب المعهد ولم نناقش قضاياها معهم فى أكثر من نصف ساعة .

ولهذا آثرنا أن تكون مدرسة ابن مالك وما حدث فى العصر الحديث من محاولات فى تطوير الدرس النحوى هما موضوع دراستنا فى العام القادم إن شاء الله فأتاح الفرصة ومد فى الأجل .

والله نسأل أن يلهمنا الرشد فى القول والصلاح فى العمل ! !

الفهرس

☆ ☆ ☆